

عشرية أولى... والبقية تأتي...

إن حركة التغيير الذي مثل منذ البدء حدثاً وطنياً فريداً في بابه ، جديداً في أسلوبه ، ثرياً في محتواه ، تجاوز مع الأيام هذه الخصال حيث أصبح محطة سنوية يستعيد فيها التونسي شريط الأحداث التي مرّ بها الوطن خلال سنة من الانجاز والفعل سيتعرّضها ويعمل فيها النظر ، مسجلاً - بالتأكيد - التّجانس البديع بين الفكر والفعل ، والتطابق الأمثل بين الأقوال والأفعال .

أجل تلك هي حالة المواطن التونسي خلال السنوات العشر الأخيرة : تراه يستغل الأيّام في مضيقها والسنة في دورتها من أجل أن يحلّ شهر نوفمبر كي يحتفل بالذكرى السنوية المجيدة ، احتفال الناظر المدقق بمنيا النفس باستخلاص ما به ترتاح نفسه ويهنأ باله ، وبما به يجدد العهد مع الماضي القريب فرحة حاضر مريح وثقة في مستقبل مشرق . لقد مرّ الآن على الحدث السعيد عشرة أعوام باشر فيها بطل التغيير تصريف شؤون البلاد وسياسة المواطنين في جميع الاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية في وحدة جديدة كلّ الجدة قوامها إيلاء المسألة الاجتماعية نفس الاهتمام الموجه للمسألة الاقتصادية ، بحيث تتمّ العناية بهما ضمن مسيرة واحدة موحدة تعتبر

تقدّم إحداها على الآخر مفض بالضرورة الى بروز الخلل الذي يستعصي معه كل علاج .

إنّه بالعودة الى الماضي القريب والبعيد يحصل الاقتناع بأهمية عملية الربط المكين بين الجانبين ، فإذا أضفنا الى ذلك الكيفية التي عالج بها سيادة الرئيس زين العابدين بن علي هذه المسألة أمكننا الوقوف على ما به حقق لتونس العهد الجديد من نجاحا منقطع النظير ، نجاح تمثّل - أساسا - في عيش جموع المواطنين في ظروف مادية ميسورة ومعنوية منعشة وعلاماتها انصراف كلي للعمل ، في تشبّث واضح بالأمل ، ودون ما كلل أو ملل .

ومن تجليات ذلك ما قد عودنا به سيادة الرئيس زين العابدين بن علي من هدايا تتواتر مع تواتر الأيام ، وعلى مدى سنوات التّغيير ، وها هو يختتم هداياه للسنة العاشرة للتحوّل المجيد ببعث البنك الوطني للتضامن الذي يمثّل - فيما يمثّل - >> التّلازم بين البعدين الانساني والاقتصادي في سياسة العهد الجديد << وأكرم به من هدف نبيل أعطى به للعشرية نكهة خاصة ومعنى جديدا متجدّدا .

والاتحاف التي اعتادت الاحتفاء بالذكرى المجيدة تحتفل اليوم بالعشرية منزلة إياها المنزلة التي هي بها قميّة فتخصّص عدد نوفمبر للحديث عن جوانب من العهد الجديد في مسيرته الموفقة بتونس البلد الأمين نحو مزيد من البناء والتشييد .

عبد القادر الهاني

نظرية الحكم في بيان السابع من نوفمبر

بقلم الأستاذ : المحبيب الدريدي



إنَّ من أبرز العوامل المؤثرة في حياة الأمم والشعوب والمفجّرة للتحوّلات الكبرى والمنعطفات الهامّة في مسارات الجماعات البشرية ومصائرهما تلكم النصوص التأسيسية التي تنجم ساعة ظلمة واختلاط سُبُل وتبذُّر وقت عتمة وأدلهام أفق فتكون مخلصّة من إفسار الخيرة والضياع وفناكّة من عقال الظلمة واليأس مطهّرة من أدران القوضي والجهالة ومبصّرة بمسالك الخلاص والتّشوير .

إنَّ الأحداث الجليّة في حياة الانسانيّة لم تكن مادّيّة أو عسكريّة أو اقتصاديّة أو سياسيّة فحسب بل كانت أيضا لفظيّة كلاميّة أيضا ، أليس القرآن حدثا كلاميّاً بالأساس وهو الذي أخرج الانسانيّة من الظلمات إلى النّور ومن الجاهليّة إلى السّماحة ومن الظلال إلى الهدى . وكثيرة هي الكتب التي وضعها البشر فكانت وراء تبديل حياة أممهم وأقوامهم وشعوبهم ، ألم تغيّر كتب أفلاطون حياة اليونانيين وفكرهم ؟ ثمّ ألم تهيه كتب المتنورين في فرنسا من أمثال روسو وديد رو وفولتير وروبا سبيار للثّورة الفرنسيّة في القرن الثّامن عشر تلك الثّورة التي عصفت بآخر معاقل التخلّف والاستبداد في أوروبا . ثمّ ألم تكن نصوص الأفغاني وعبيد الكواكبي والطّهطاوي وخير الدّين وطه حسين والحدّاد وقاسم أمين

ممهّدة لنهضة عربيّة خطيرة في أواخر القرن الماضي وبدايات هذا القرن .
ومازال التونسيّون يهتدون اليوم في حياتهم السّياسيّة بنصّ خطير جليل
مهيّب هو بيان السّابع من نوفمبر 1987 .

ولئن بدا هذا النصّ وليد ظرفيّة تاريخيّة معلومة وصنيع مقام معيّن مخصوص
نمّا قد يوهّم بمحدوديّة تأثيره وضيق أبعاده فإنّه - لمن أمعن التأمّل وأدام التدبّر -
مطلق في أبعاده ثريّ بدلالاته ، بعيد الغور في إحياءاته فهو ينطوي على عقيدة
سياسيّة متينة قويمة وهو يعرب عن نظريّة في الحكم متماسكة متكاملة وهو يؤسّس
لخطاب سياسي جديد دقيق ومركّز .

إنّ بيان السّابع من نوفمبر ليس - في تقديرنا - إبدانا ببداية عهد جديد في
تاريخ تونس فحسب وإنّما هو مدخل ومنطلق الى تصوّر حدائيّ متبصّر للحياة
السّياسيّة المتطوّرة والمنظّمة ، وفاتحة لفهم ناضج ومعقّد لمراس السّلطة والمواطنة ،
إنّه وضع لأسس الحياة المدنيّة الرّكيعة .

نظريّة الحكم :

ولئن لم يعرب البيان عن اعتزامه بسط نظريّة صريحة في الحكم فإنّنا متى
دقّقنا فيه النّظر ألغيناه ينطوي على مواقف فكريّة حضاريّة وأفكار نظريّة مجردة
وعقيدة سياسيّة يشكّل مجموعها معالم منظومة متكاملة في الحكم تكشف أقوم
السّبل إليه وأفضل الطرق في مباشرته وأرشد المسالك في الارتقاء بأسلوبه
ونوعيته .

* ثنائيّة التّأليف والتّكليف أو شعب مؤلّف ومكّلف :

إنّ أهمّ ما يمنح نظريّة الحكم في البيان طرافة وتفرداً أنّا تنبني على تصوّر
متعدّد الأبعاد متنوّع الدّعائم ، إذ أنّ هذه النّظريّة لا تنهض على أسس دستوريّة
تشريعيّة فحسب وإنّما تستند كذلك في قيامها إلى أسس نفسيّة وجدانيّة إنسانيّة
نجعلها في ثنائيّة التّأليف والتّكليف .

إنّ المباشرة السّليمة للحكم في فلسفة الرّئيس ابن علي تشترط حركتين

متلازمتين : أولا هما حركة تأليف بين أفراد الشعب وأبناء الوطن الواحد من مختلف الفئات والشرائح ومتباين المشارب والمذاهب ، وهذه الحركة من شأنها أن تخلق مجموعة بشرية متكاتفه مترابطة وتمتد بين أفرادها عرى التلاحم والتوادد فتجعلهم بنيانا مرموصا متضامنا متآزرا وتشيع بينهم جوًا من الوفاق والألفة وتمحو كل ما قد يوهم بالتمايز أو التفاضل أو التخالف : >> ستعتمد في مباشرة مسؤولياتنا في جو من الثقة والأمن والاطمئنان على كل أبناء تونسنا العزيزة فلا مكان للحقد والبغضاء والكراهية >> . وثانيتها حركة تكليف تنبني على تحسيس جميع أفراد الشعب باختلاف منازلهم ومواقعهم وتباين كفاءاتهم واقتدارتهم بأنهم مسؤولون بشكل مباشر على صيانة ما تحقق للوطن من مكاسب وتدعيمها وعلى السير بالبلاد إلى مراتب أعلى ومراقي أرفع ، إن جوهر هذه الحركة هو جمع الشعب حول الغايات البعيدة والمقاصد العميقة للأمة كلها وتحفيزه إلى الاسهام بحماس فياض وبروح وطنية عالية في تحقيقها وتحسيسها وإشعاره بأن لا غنى عن مشاركته في إبداء الرأي وصنع القرار وتنفيذ البرامج والتوجهات في جميع الميادين سياسية كانت أم اقتصادية أم ثقافية أم اجتماعية : >> إن استقلال بلادنا وسلامة ترابنا ومناعة وطننا وتقدم شعبنا هي مسؤولية كل التونسيين وحب الوطن والذود عنه والرفع من شأنه واجب مقدس على كل مواطن

إن شعبا من الأفراد المؤلفة قلوبهم المتواذلين المتعاطفين وإن شعورا عميقا بالمسؤولية وإحساسا حادا بالواجب ووعيا بعيدا بالتكليف هي مقوم مركزي لنظرية الحكم في بيان السابع من نوفمبر .

قيم الجمهورية وروح المدنية :

إذا كانت الأبعاد النفسية والوجدانية ذات أهمية بالغة في نظرية الحكم عند الرئيس ابن علي باعتبار أن الممارسة الطبيعية والمثلى للحكم تقتضي شعبا مؤلفا ومكلفا فإن الجوانب الدستورية والتشريعية تحتل هي الأخرى مكانة متميزة في صلب هذه النظرية ، فتمتى أمعنا النظر في بيان السابع من نوفمبر اتضح لدينا أن ثلاثة مفاهيم أساسية تشكل مركز ثقل البيان وحجر الأساس فيه وتمثل النواة التي

نشأت حولها لحمة وقام عليها سداه وهي : الشعب والدستور والنظام الجمهوري .

أما فيما يتعلق بالشعب فإنه يحضر في البيان حضورا بارزا باعتباره منطلق عملية الحكم ومصدرها ، ووسيلتها وأداتها ، وغايتها ومقصدها ، وهكذا فإن البيان يقر أهلية الشعب للمساهمة الفعلية في ممارسة السلطة وتنشيط الحياة السياسية : >> إن شعبنا بلغ من الوعي والنضج ما يسمح لكل أبنائه وفئاته بالمشاركة البناءة في تصريف شؤونه >> ، كما ينبّه إلى ضرورة احترام سيادة الشعب وصيانتها باعتبارها مبدأ دستوريا جوهريا : >> وعلى أساس سيادة الشعب كما نص عليها الدستور >> ، بل إن البيان يذهب إلى شأ أبعد فيلج على تطوير مساهمة الشعب في تدبير الحياة السياسية وتعزيز مشاركته في إدارتها كلما ارتقى مستوى نضجه وتعمقت درجة وعيه ، إن البيان ينكر اختلال التوازن بين المستوى الفكري والحضاري للشعب ومستوى الحياة السياسية التي يعيشها ويؤسس لعلاقة متكافئة بين حياة الشعب العقلية وحياته السياسية : >> فشعبنا جدير بحياة سياسية متطورة ومنظمة >> .

وأما ما اتصل بالدستور ، فإن البيان يشير إلى طريقة في التعامل معه مخصوصة أساسها صيانة التليد وصياغة الجديد ، ففي الدستور - باعتباره نصا مرجعا في تنظيم الحياة السياسية - ثوابت تليدة تنبغي صيانتها وحفظها مثل إقرار سيادة الشعب والتفريق بين السلط وضمان الحقوق والحريات ولكن فيه من جهة ثانية هنات ومغامز احتاجت إلى أن تُراجع ويُعاد فيها النظر لتصاغ صياغة جديدة حتى يسترجع الدستور هيئته وقيمته المرجعية ويستعيد النظام السياسي إحكامه وصرامته ويعود إلى القيم الجمهورية تأثّلها ورسوخها .

إن الأسلوب الذي قارب به بيان السابع من نوفمبر مسألة الدستور أسلوب يدلّ على منحي إصلاحي ثابت ، ما في ذلك شك ، ولكنه يدلّ كذلك على منحي تطوري تاريخي سيتأكد في تنقيح 25 جويلية 1988 وخاصة في خطاب سيادة

الرئيس يوم 28 ديسمبر 1996 من أعلى منبر مجلس النواب حيث أعلن تنقيحاً جديداً يعزّز قيم الجمهورية ويثبّت الممارسة الديمقراطية ويدعم أركان المجتمع المدني

إذا كان النظام الجمهوري ثالث المفاهيم التي نهتمّ بها في معالجة الجانب الدستوري والتشريعي من نظرية الحكم في بيان السابع من نوفمبر فإنّ ذلك يعود إلى ضرورة منهجية محض ، إذ أنّ هذا المفهوم يستوعب المفهومين السابقين ويمثّل بالنسبة إليهما المصّب الذي ينتهيان إليه ، فسيادة الشعب وحرمة الدستور مفضيان حتماً إلى نظام جمهوري متين الأسس صلب الدعائم ثابت الأركان .

وفضلاً عن ذلك المفهومين فإنّ النظام الجمهوري في فلسفة الرئيس ابن علي يستند في قيامه إلى مؤسسات سياسية ودستورية فاعلة ذات حرمة واستقلالية ونجاعة وإلى ديمقراطية مسؤولة ناضجة تمنع الانتشار بالسلطة وتعيد الكلمة إلى الشعب عند شعورها وتقرّ مبدأ التداول على الحكم وتحرص على أن يتمّ الاضطلاع به في ظروف تضمن هيبة الدولة : >> لا مجال في عصرنا للرئاسة مدى الحياة ولا لحقاقة آلية لا دخل فيها للشعب << .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

خاتمة:

إنّ بيان السابع من نوفمبر أوّل نصّ سياسيّ تونسيّ معاصر يقترح نظرية في الحكم متكاملة دقيقة وتقدمية ، فهو ينظر للديمقراطية الحقّ ولحياة سياسية متطورة وهو يعيد الاعتبار لقيم الجمهورية وسيادة الشعب وفي هذا أبلغ دليل وأوضح برهان على أنّ حركة السابع من نوفمبر حركة مستندة إلى فكر صارم عميق وأنّ قبائدها الرئيس زين العابدين بن علي هو أنموذج لرجل الدولة ولرجل الفكر في الوقت نفسه ، ولعلّ هذا التمازج بين السياسة والفكر هو أهمّ المصادر التي تستمدّ منها حركة التغيير قوتها ونجاحاتها المتصلة وأبرز الأسباب الكامنة وراء سلامة اختياراتها وريادة توجهاتها وتقدمية رهاناتها .

القيم السلوكية والحضارية في بيان السابغ من نوفمبر

"... إنه لما يسر عملنا ويحفز طاقاتنا اجماعنا بكل أريحية
على القيم والأهداف التي أعلنّاها في مثل هذا اليوم..."

سيادة الرئيس زين العابدين بن علي

من خطاب بتاريخ 7 نوفمبر 1994

بقلم : لطفي بن عمر جعة

تعد القيم السلوكية الحضارية من بين أبرز الأركان التي أرسى عليها نظام العهد الجديد مشروعه المجتمعي وقد وكلت مهمة غرس هذه القيم الى المدرسة التي هي حسب صانع التغيير أفضل وأجدي المؤسسات لغرس المبادئ والقيم واعتبارها المحافظة لها والمؤتمنة لها على غد البلاد (1) . والمتأمل في خطاب صانع التحول وكلماته وبياناته يلاحظ إبراز سيادته للقيم التي انبثت عليها حركة السابغ من نوفمبر أو ذكره المتواصل لقيم التغيير المتنوعة والتي احتوى على الكثير منها بيان السابغ من نوفمبر هذا البيان الذي أصبح نبراسا ومرجعا ومصدر إلهام واجتهاد . فما هو مفهوم القيمة ؟ وما هي القيم الواردة في البيان وأنواعها ؟

مفهوم القيمة وأنواعها

تدل كلمة قيمة على إسم النوع من الفعل (قام) (2) بمعنى اعتدل واستوى وجاء في لسان العرب : قام الشيء ، واستقام : اعتدل واستوى ... والقيمة واحدة القيم ... والقيمة ثمن الشيء ، بالتقويم ويقال قام ميزان النهار فهو قائم أي اعتدل (3) كما جاء في ترتيب القاموس المحيط قوّمت السلعة واستقيمتها : ثمنتها (4) ومن ذلك كانت كلمة قيمة ذات معنى اقتصادي فتدل مجازا على ما اتفق عليه أهل السوق وقدره وروّجه في معاملاتهم بكونه عوضا للمبيع (5) . وإذا تأملنا دلالات كلمة قيمة في كتب اللغة نجد أنها تشير إلى أمور يعتبرها الفرد جيدة أو ذات أهمية (6) بل تشير الى معاني تدل على كمال ، بينما يدلّ مقابلها على نقصان فالثبات والاستقامة والاعتدال صفات مستحبة في الانسان وغيره لذا أصبحت كلمة القيمة تستعمل في

مجالات متعددة للدلالة على كلمات كانت شائعة في الفلسفة القديمة مثل الخير والخير الاسمي والكمال (7) والدلالة أيضا على أحكام يكتسبها الانسان من المجتمع فالصدق والأمانة والشجاعة الأدبية والولاة وتحمل المسؤولية كلها قيم يكتسبها الفرد من المجتمع الذي يعيش فيه (8) ولا تنحصر القيم فيها ذكر وإنما هي كل فعل أو نشاط وكل وصف مرغوب فيه أو قابل للرغبة فيه يحفظ وجود الانسان ويسعده ويثريه بل إنها كل ما يثبت إنسانيته ويؤكد لها ويسمو بها من درجة الى أخرى أعلى منها وباستمرار (9) وبما أنه الرغبة من بين ميول الانسان مثلها مثل التطلع والحلم والحب والارادة وإذا تم الاتفاق على تسمية كل من هذه الميول بالقيمة فإن كل شيء يصير قيمة بالنسبة للانسان لأن كل شيء يمكن أن يصير موضوعا للميل وعليه فإنه لا توجد قيمة واحدة بل عدد من القيم يفضل بعضها على بعض بصفة تلقائية الى حد ما وتنقسم بالنسبة لكل إنسان الى قيم حقيقية وقيم غير حقيقية وهي على كل حال كثيرة ومبدانها واسع تحد معاملة كل الالفاظ المتقابلة التي يمكنها تفضيل مدلولاتها بعضها على بعض ونقل عنها " إنها خير من ... أو أحسن من ... أو أفضل من ... " فالشجاعة خير من الجبن والجمال خير من القبح والحقيقة خير من الباطل والصحة خير من المرض والرخص خير من الغلاء والفرح خير من الحزن وهكذا ...

فهذه الامثلة يشتمل كل واحد منها على قيمة وما يقابلها ويمكننا أن نضيف اليها غيرها لأن القيم كثيرة تكاد تفوق الحصر ويصعب الاتمام بها إذا لم يقع تصنيفها تحت أجناس تجمع بينها وتقلل من عددها وتجعل الاحاطة بها يسيرة بالنسبة اليها (10) واعتقادا على ما اعتاد عليه الفلاسفة من تصنيف القيم فقد قام بعض الباحثين بتصنيف القيم الى مجموعات خاصة بهم مشتقة من تصنيف بعضهم ومتطورة عنها ومن هذه المجموعات :

- 1 - المجموعة القيمية الاخلاقية : وتتضمن الصدق والعدل والدين ... الخ
- 2 - المجموعة القيمية الاجتماعية : (1) وتتضمن التواضع والثمائل والكرم ...
- 3 - المجموعة القيمية الاجتماعية : (2) وتتضمن حب الجنس وحب الاسرة والصدقة ...
- 4 - المجموعة القيمية الذاتية : (1) وتتضمن القوة والذكاء والشجاعة ...
- 5 - المجموعة القيمية الذاتية : (2) وتتضمن التسلط والعدوان والنجاح ...
- 6 - مجموعة قيم الامن (السياسية)
- 7 - مجموعة القيم الجسمانية : وتتضمن الصحة والنشاط والراحة ...
- 8 - مجموعة القيم الترويحية : وتتضمن الاثارة والمرح ...
- 9 - مجموعة القيم العملية : وتتضمن التملك والعمل ...
- 10 - مجموعة القيم المتنوعة : وتتضمن المحرص والنظافة والسعادة ...
- 11 - مجموعة القيم المعرفية (11)

وخلاصة القول لبأنه قد وضعت عدة تعريفات للقيم وهي تؤكد جميعاً أنها أحكام يصدرها الفرد على العالم الانساني والاجتماعي والمادي الذي يحيط به وهي عبارة عن تنظيمات معقدة لاحكام عقلية انفعالية معممة نحو الاشخاص أو الاشياء أو المعاني (12) وتقصّد بالقيم : قيم دينية ونظرية واقتصادية واجتماعية وجمايلية وسياسية (13) وذاتية وجمايلية وأخلاقية . ومهما كانت القيم فإنها تتأرجح بين قطبين : أحدهما إيجابي والآخر سلبي فالقيم الايجابية تجذب اليها بما لها من كمال فتزداد قدراً ورفعة حين تنجذب اليها والقيم السلبية تجذب اليها أيضاً ولكن بما لها من لمعان وبريق فتنحط ونفقد قدرنا حين نستجيب اليها . (14)

القيم الواردة في بيان 7 نوفمبر وأنواعها

لقد احتوى بيان السابع من نوفمبر على أنواع عديدة من القيم سواء كانت قيماً منشودة أو قيماً مرفوضة .

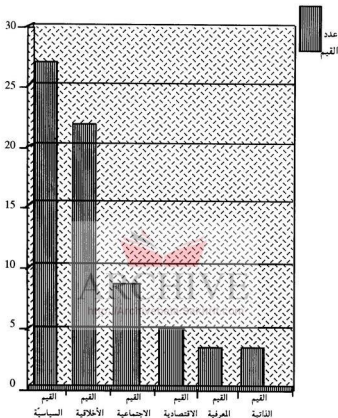
القيم المنشودة وأنواعها

تنوعت القيم المنشودة الى قيم سياسية وقيم أخلاقية وقيم اجتماعية وقيم اقتصادية وقيم معرفية وقيم ذاتية احتلت فيها القيم السياسية المرتبة الأولى من حيث عدد القيم الواردة في البيان ، 27 قيمة أي بنسبة 34.6٪ أما القيم الأخلاقية فقد احتلت المرتبة الثانية بـ 21 قيمة أي بنسبة 26.9٪ والقيم الاجتماعية المرتبة الثالثة بـ 8 قيم أي بنسبة 10.2٪ والقيم الاقتصادية المرتبة الرابعة بـ 5 قيم أي بنسبة 6.4٪ والقيم المعرفية والذاتية المرتبة الخامسة (2) قيمتان لكل نوع أي بنسبة 2.6٪ لكل واحد منها فكان بذلك مجموع القيم المنشودة 65 قيمة أي بنسبة 83.4٪ (انظر الجدول رقم 1)

جدول رقم (1) يبين أنواع القيم المنشودة الواردة في بيان 7 نوفمبر

نوع القيمة	عدد القيم	النسبة	الرتبة
القيم السياسية	27	34.6 %	1
القيم الأخلاقية	21	26.9 %	2
القيم الاجتماعية	8	10.2 %	3
القيم الاقتصادية	5	6.4 %	4
القيم المعرفية	2	2.6 %	5
القيم الذاتية	2	2.6 %	5
المجملة	65	83.4 %	-

أنواع القيم المنشودة الواردة في بيان 7 نوفمبر



أما من حيث ترتيب القيم حسب كل نوع (أو صنف) من أنواع القيم الواردة في البيان فأتته بالنسبة للقيم السياسية احتلت المواطنة كقيمة المرتبة الأولى من حيث تكرارها والجمهورية المرتبة الثانية ثم تأتي بعدها قيمة النظام والقانون والرئاسة والاستقلال وحب الوطن ثم بقية القيم أما بالنسبة للقيم الأخلاقية فإن المسؤولية احتلت المرتبة الأولى من حيث تكرارها ثم الواجب والثقة ، بعدها بقية القيم ، أما بالنسبة للقيم الاجتماعية فنجد التعاون كقيمة احتلت المرتبة الأولى ثم المشاركة ، بعدها بقية القيم أما القيم الاقتصادية فإن العمل كقيمة احتلت المرتبة الأولى ثم بعده بقية القيم (أنظر الجدول رقم (2)) .

جدول رقم (2) يبين القيم المنشودة الواردة في بيان 7 نوفمبر

القيم السياسية	القيم الاخلاقية	القيم الاجتماعية	القيم الاقتصادية	القيم المعرفية	القيم الذاتية
القيمة - تكرار	القيمة - تكرار	القيمة - تكرار	القيمة - تكرار	القيمة - تكرار	القيمة - تكرار
1. المواطنة	1. المسؤولية	2. التعاون	5. العمل	1. الوعي	1. الحسب
2. الجمهورية	3. الواجب	2. المشاركة	1. التنمية	1. النضج	1. الاطمئنان
3. النظام	4. الثقة	2. المرافقة	1. التقدم		
4. قانون	3. الحرص	1. التضامن	1. التطور		
5. الرئاسة	3. التضحية	1. حسن	1. المصلحة		
6. حب الوطن	2. الاتسام	1. العلاقة			
7. الاستقلال	2. الاصرار	1. الصداقة			
8. الدستور	2. التقدير	1. المشاققة			
9. الحرية	1. الاخلاص	1. شقيقة			
10. القوة المسلحة	1. الترفيق	1. الوحدة			
11. الامن	1. الجدارة				
12. سلامة التراب	1. المهامة				
13. مناعة الوطن	1. البذل				
14. الذود عن الوطن	1. الالتزام				
15. الرفع من شأن	1. التفاني				
16. الوطن	1. الجسد				
17. تصريف شؤون	1. الكد				
18. الشعب	1. الحرمة				
19. الديمقراطية	1. الحفاظ				
20. سيادة الشعب	1. الاحترام				
21. الحياة السياسية	1. التعهد				
22. الحق					
23. التعددية					
24. بناء تونس					
25. هبة الدولة					
26. الدولة					
27. النزاهة					
28. الامارة					
29. القيادة					

القيم المرفوضة وأنواعها

لقد احتوى بيان 7 من نوفمبر على أنواع كثيرة من القيم المرفوضة كان مجموعها (13) قيمة أي بنسبة 16.6٪ وقد تنوعت إلى قيم سياسية واجتماعية وأخلاقية وجسمانية كانت كلها متقاربة من حيث عدد القيم (انظر الجدول رقم 3) وكذلك من حيث تكرار كل واحدة منها في كل صنف (انظر الجدول رقم 4) .

جدول رقم (3) يبين أنواع القيم المرفوضة الواردة في بيان 7 نوفمبر

نوع القيمة	عدد القيم	النسبة
قيم سياسية	4	5.1 %
قيم أخلاقية	4	5.1 %
قيم اجتماعية	4	5.1 %
قيم جسمانية	1	1.3 %
المجملة	13	16.6 %

جدول رقم (4) يبين القيم المرفوضة الواردة في بيان 7 نوفمبر

القيم السياسية	القيم الاجتماعية	القيم الأخلاقية	القيم الجسمانية
القيمة . التكرار	القيمة . التكرار	القيمة . التكرار	القيمة . التكرار
1 . رئاسة مدى الحياة	1 . الظلم	1 . المحقد	1 . العجز
1 . خلافة أليسة	1 . القهر	1 . البغضاء	
1 . التساهل في أموال المجموعة	1 . الفوضى	1 . الكراهية	
1 . التساهل في مكاسب المجموعة	1 . استغلال النفوذ	1 . التسبب	

أنواع القيم المرفوضة الواردة في بيان 7 نوفمبر



<http://Archivebeta.Sakhrat.com>

وخلاصة القول فإن ما توصلنا إليه في محاولتنا هذه يتشابه (مع اختلاف في تصنيف القيم وأنواعها) مع نتائج البحث الذي قام به مركز الدراسات والبحوث والتوثيق للشباب والطفولة والرياضة التابع لوزارة الشباب والطفولة والذي قدم للحاضرين في المنتدى الذي نظمه المركز يومي 12 و 13 أكتوبر 1995 حول ترسيخ السلوك الحضاري لدى الناشئة في البيئة الثالثة (15) فقد بين البحث أن بيان 7 نوفمبر احتسوى على 78 قيمة منها 65 قيمة منشودة أي بنسبة 83.33 و 13 قيمة مرفوضة أي بنسبة 16.66 وتم حصر القيم المنشودة تحت عدة عناوين منها قيم ذات مرجع ديني أي بنسبة 7.69 و 14 قيمة ذات مرجع وطني بنسبة 17.94 و 29 قيمة واجبات المسؤول وتمثل 37.17 و 5 قيم توضح واجبات المواطن أي ما يعادل 6.41 و 8 قيم توضح واجبات المسؤول والمواطن معا وتمثل 10.25 وأخيرا 3 قيم تحدد واجبات المؤسسات وتمثل 3.84 والمهم من كل هذا هو العمل على تجسيم ما ورد في البيان من قيم وإجماع الجميع عليها كما أكدّه صانع التغيير في خطابه يوم 7 نوفمبر 1994 حيث قال : >> إنه لمّا ييسر عملنا ويحفز طاقاتنا إجماعنا بكل أريحية على القيم والاهداف التي أعلنّاها في مثل هذا اليوم <<.

الهوامش :

- 1 - خطاب سيادة رئيس الجمهورية بمناسبة اليوم الوطني للعلم . 16 جويلية 1994
- 2 - فزاد أفراد البستاني . منجد الطلاب . دار المشرق . بيروت . ط 23 . 1979 ص 622
- 3 - هابن منظور . لسان العرب المحيط . اعداد وتصنيف : يوسف خياط . دار لسان العرب . بيروت ص 192
- 4 - احمد الطاهر الراوي . ترتيب القاموس المحيط . الدار العربية للكتاب . ط 3 . 1980 ص 718
- 5 . 7 . 9 . 10 . 14 . د . الربيع ميمون . نظرية القيم في الفكر المعاصر . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر . 1980 (ص 27 . 28 . 31 . 49)
- 6 - فاخر عاقل - معجم علم النفس . ص 119
- 8 - احمد زكي بدوي . معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ص 438
- 11 . 12 - محمد ابراهيم كاظم . تطورات في قيم الطفلة . قراءات في علم النفس الاجتماعي في البلاد العربية . د . لويس كامل مليكة . الدار القومية للطباعة والنشر . ط 1 . 1965 ص 634
- 13 - د . محمد السيد أبو النبل ود . انشراح محمد دسوقي . علم النفس الفارق . دار النهضة العربية بيروت . 1986 . ص 193
- 15 - جريدة الحرية . 15 أكتوبر 1995 . جريدة الصحافة 13 أكتوبر 1995 .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>



من التحوّل إلى التّغيير ومن التّغيير إلى فلسفة التّغيير

بقلم : محمد المهدي المهري

إنَّ كلَّ مبادرة إلى التّغيير نحو الأفضل ، تبتدئ بالقرار الصّعب ، الذي سيظفو ، كحبة اللّقاح ، فوق ماضٍ جبلت أبنامه واختمرت وريث وحان ميعاد وضعها .
ويتجسّم التّغيير ، بعد إصدار بيان القرار ، في الممارسة والفعل وذلك في اتّجاه إصلاح ما فسد : بالابطال أو التعديل أو الخلق والابداع وهكذا تبدأ مرحلة تاريخيّة جديدة في التكوّن تحمل مقوماتها وخصائصها في ذاتها ، كما تنطوي البذرة المزروعة في باطن الأرض على خصائص الثمرة .

غير أنّه لو وقع الاكتفاء بهذا المستوى العملي من التّغيير ، فإنّ هذه المرحلة توشك بعد فترة زمنيّة ، أقصرت أم طالت ، أن ترتدّ إلى انتكاسة ، ينقلب عندها كلّ انجاز إلى هباء منثور ، ويحدث ذلك عندما تنتزع منه قيمة الجودة والتجديد ، وتسوء العاقبة أكثر عندما يضرب عليه صفحا بلحاف من الكتمان ويبنى عليه جدار من الصّمت ، فيظهر شبحه في مستقبل الأيام بلا علم ولا رسم ولا إسم ، وبالإضافة الى كلّ ذلك قد تلحق ثمرته بغير صاحبه ، ويسرقه من لم يبذل فيه أدنى جهد : فماذا تفيد البذرة الطيّبة لو وضعت في أرض بور ، لا يعرف الماء لها مسقى ولا جدولا ؟ ومن ناحية أخرى ، على من تُعوّل عندما تستودع إسمك ومكاسيك ، وتدخّر محاسنك في خزينة من لا يكنّ لك المحبة ؟ .

ولكلّ هذه الأسباب الآتفة الذكر لا بدّ وأن يتبع الجانب العملي من التّغيير " بفلسفة التّغيير " ، التي يجب أن تبتدئ بتعميق المفاهيم ، وتحويلها من مجرد إسم إلى دلالة ، ومن مجرد دلالة إلى واقع ، ومن مجرد واقع إلى فكرة نظريّة ، وأخيرا إلى مستقبل ، تتجسّم بمآتاه الطموحات والآمال .

فما هي دلالة التّغيير ؟ وما هو العمق المفهومي لهذا اللفظ ؟ وأخيرا ، بأيّ

معنى يمكن الحديث عن فلسفة في التغيير ؟

1- في دلالة التغيير:

يعني التغيير في دلالة اللغوية : التبدل والتحوير والاستبدال ، والاختلاف . وكلّ هذه الالفاظ تعني الانتقال من حال الى حال مغاير . وقد أطلق على الانسان المختلف إسم " الغير " ، وذلك في مقابل المائل والشبيه . وفيما يتعلق بالمجتمعات والشعوب ، تسمى عملية " التغيير " ، إن كان بطيئا ، بالتحوّل التدريجي أو الانتقال المرحلي ، أما إذا كان التغيير سريعا وشاملا لكلّ نواحي الحياة تسمى بالثورة . وهو في كلتا الحالتين ، إمّا أن يؤدي إلى وضع أحسن وإمّا أن يؤدي إلى وضع أسوأ . وكلّ " تغيير " . بالمعنى المذكور . ينطوي على مغامرة ورهان ، لأنّه عبارة عن العزم على قطع الصلّة مع حال نعيشه بالفعل ، ونذكر كنهه بالمعرفة والتفاعل والمعاينة ، والتشبّث بمشروع لوضع نأمله بفكرنا ، ونريده أن يكون أحسن عندما نشرع في رسم خطواته الأولى ، وذلك دون أن نكون قد عشناه أو عايناه . وبما أن تجسيم هذه الصورة المأمولة في وضع جديد وفي حال أحسن يتركز على الإرادة والعزم والتّصميم ، فإنّه يتطلب توضّحات كبيرة : قد تطول فتتخر العزيمة ، وقد تثقل فتضعف الإرادة ، وقد تكون مكلفة فتشكّك في الاهداف وفي القدرة ، وقد تحمّل على فنة دون أخرى فتؤدّي الى الطعن في نزاهة القائمين على " التغيير " ، وبالتالي ، ومن المنتظر لو وقع هذا ، أن ينتكس فعل التغيير ، فيفقد توازنه ويضطرب ويخلط القائمون عليه بين الإصلاح والافساد بدعوى ضرورة حمل الناس على تكلف التّوضّحات .

ولكن ، من جهة معاكسة ، قد تُختزل التّوضّحات إلى القدر الذي تصير به غيرُ مثمرة ، أو قد تُحمل المسؤوليات على كاهل فنة غير مُعدّة لها ، فتعتبرها عقوبة وتربّص للافلات منها . وهكذا تُحدث كلفة التغيير في نفوس القائمين عليه ، والمتابعين له ، قلّقا وتذمّرا وشعورا بالضيق والضغط ، فينعكس الفعل على « نفسه ، ويبدأ في التباطؤ ، فالتوقّف ، فالارتداد الى الوراء ...

2- التغيير في علاقته بعامّة الناس :

لما كان المتغيّر هو المختلف ، وهذا ، هو المنكر ، وغير المعهود ، ولما كانت

عملية التغيير تستهدف تبديل الأحوال بترك المعروف منها والأخذ بالمجهول . تأكد عندئذ وأن التغيير مغامرة تتطلب الحذر : فالإنسان قد جُبل على خاصيتين متناقضتين : التكيف مع كل وضع والتذمر من كل وضع ، وبمعنى آخر الاستئناس بكل حال والتضايق من كل حال؛ فهو يرتاح لأوضاعه عندما تطول مدته (وهو فيها) ، وقد يصل به الحد إلى أن يتلذذ بتتالي وتواتر الظروف المتشابهة عليه . ولكن في نفس الوقت وفي خط مواز تجده يتذمر من أحواله في أي اتجاه كانت ، ويرقب بعينه آفاق التغيير إلى أحسن ويتمناه في السر والعلن ، ويأمل في إزاحة قيود الفقر والاستبداد والجهل... الخ .

ولكون الإنسان العاقل مسؤولاً أمام نفسه ، ومسؤول اجتماعياً ، فإنه لو لم يفرض عليه الآخرون قيوداً ، فإنه سيتبع كل السبل ليضعها هو بنفسه ، وينظم سلوكه طبقاً لها . ولكن من جهة أخرى ، ولكون الحياة ترفض القيد ، فهو يسعى جاهداً لإزالتها .

إن خاصية المفارقة في الكائن البشري ، وجدلية الجذب والانجذاب للإنسان المتردد بين العقل والحياة تضعه في منزلة قلقة حرجة بين عاملين متنافرين : المحافظة والثورة . وبما أن الحياة هي الأصل والطبيعة الأولى ، والعقل طبيعة ثانية تركب عليها ، كان طلب التغيير هو الغالب على أحوال الناس . وفعل التغيير ، إذا بدا يعتمل ، فهو سينحاز إلى دافع الحياة على حساب صورة للعقل يتمسك بها المجتمع . ولهذا السبب غالباً ما يُنعت صاحب التغيير بالجنون أو المتطرف أو الساحر أو الملحد والكافر... الخ ، وإن كان صاحب التغيير أصيلاً ، أي يهتدي بالحياة أكثر من اهتدائه بالعقل ، فإنه لن يعبأ بذلك ولن يهتم له ، بل لا تزيده النعوت والشائم إلا عزيمة وإصراراً على مواصلة مسعاه . وهكذا شيئاً فشيئاً تتغلب الحياة على صورة من صور العقل أضحت بالية ، لتحدث . بتوسط صاحب التغيير . صورة أخرى جديدة . لكن لن يتم ذلك بدون توضيحات ، لأنه يتخلل بين الصورة الأولى والصورة الثانية فترة من الجنون تُجسم مثال الحياة بلا عقل ، وهذا الأمر يلزم الإنسان ، عندما يكشف أن حياته مهددة فعلياً ، باعتماد آليات لا واعية ، في تكوين صورة جديدة للعقل . وفي واقع الأمر . عند استقراءنا للتاريخ . نعرش على

ثلاثة أصناف بارزين من البشر يتحملون مسؤولية التغيير ، حسب درجات مختلفة تعين رتبها دوافع الحياة .

- أولا : الرسول :

وهو رجل يسعى إلى تغيير أوضاع قومه ، وقلبها رأسا على عقب ، وذلك بتفجير الصورة العقلية الموجودة بالكامل تفجيراً يطلّ العقائد والعادات والسلوك والنظام الاقتصادي والاجتماعي .

يحكم العامة في البداية . على الرسول بأنّه مجنون أو مسحور أو ملحد ... ويزكي عقلا، القوم هذا الحكم بتوضيحه والبحث له عن مبررات ثم يتحامونه جميعا ويسمعون لعزله والصدّ عنه بأشكال مختلفة : المادّي منها والمعنوي ، ويذيقونه وأتباعه فيما بعد من العذاب ألوانا ... فإذا نجح هذا الرجل . بالرغم من المضايقات والمصاعب . في التغيير وفي تحديّ العراقيل أعتُرف بفضلّه ، وعلم أنّه فريد في نوعه ، رسول من عند ربّه ، وقد تجسّعت فيه لا قوّة الحياة فقط ، بل مدّة من إرادة الله . وليس للانسان أن يتصور واجبات الرسول وقدرته على التغيير إلّا إذا تمثّل في نفسه هذا العيب الخطير والخلل الكبير والأمانة التي تزن التاريخ البشري برمتّه . وهذا النوع من التحول هو ثورة شاملة ، تنشأ على إثرها ظروف جديدة كلّ الجدة ، وأوضاع مختلفة كلّ الاختلاف . وبعد أن يكون الرسول منبؤا في قومه ، مردودا عليه قوله ، يحاصره الموت من كلّ مكان ، يُصبح فيما بعد نبض الحياة التي يحيا بها الناس ، والطاقة المحركة لأفعالهم ، حُبّه يسكن أعماق وجدانهم ، وقوله يتقلب إلى محلّ تقديس ونبراس هداية ومرجع معرفة .

ولا شك أنّ كثيرا من الرجال يسعون في مراحل تاريخيّة متباعدة إلى تغيير أوضاع أقوامهم بكلّ جرأة وحزم ، إمّا عن اقتناع وعقيدة بأنّهم رسل أو عن خديعة وتوهم ، ولكن تتمثّل المغامرة الخطيرة ، في كونهم إذا فشلوا ، سيقبّلون في نظر أقوامهم كذابين ، مخادعين ، ملعونين ، منبؤين ، وغالبا ما يقع التشكيك بهم . وقد يكون السبب في فشلهم ، أنّهم لم يوفّقوا في إدماج عقائد أقوامهم في إطار مبادئ كليّة ، تستوعب في داخلها تلك العقائد مجتمعة دون أن تتناقض معها جذريا ، بمعنى تبديدها وتفنيتها بدون أن تواجهها مباشرة ، بل بطريقة عريضة ، كما

يفنى الجزء ، في الكلّ ، أو كما يبدّد النور الظلام لمجرد حضوره في المكان المظلم . وهذا ما فعلته الديانات التوحيدية (وخاصة الاسلام) ، عندما أذابت كثرة الآلهة في إله واحد غير مشخّص . فلمجرد الاعتقاد في إله واحد ينهار كلّ النظام المبني على فكرة تعدّد الآلهة (1) .

- ثانيا : المصلح في مجتمع يدين للرّسول بالتبعية :

لا يغيّر الرّسول الأوضاع بالعقل ، وإنّما بالارتكاز على قوّة الارادة ، وبزخم من دوافع الحياة . وتهدف هذه الارادة إلى الانتشار والغلبة . وقد يموت الرّسول ، ولكن إرادته تبقى منزرعة في أتباعه يرثونها في أقواله وعقائده كما يرثون أيضا أماله وضوحاته . فإذا مال المجتمع إلى تكوين صورة لعقل محافظ يقصد به تسكين حركة التغيير ، ليعبّر عن رغبة القوم في الاستقرار والركون إلى الدّعة وحبّ السلامة والبحث عن حياة هادئة تميل إلى استنفاد الحاضر دون التشوُّك إلى المستقبل ، وتمتدّ على سطوح المقابر كي تنغذّي من رفات الجيف خوفا من مناقسة الأحياء على طلب الرزق .

عندئذ يقوم هؤلاء المصلحون بالدعوة إلى ضرورة التغيير ، مهتدون بهذه الارادة الاولى التي كان متطلبها الرّسول ، أي أنّك تراهم يشترطون في عملية التغيير بالخطوط العامّة لدعوته ، ساعين بكلّ عزم على تجسيم المراحل التالية في سبيل تحقيق أماله وضوحاته التي زُرعت بذورها في وجدان أتباعه . وبهذا الفعل يُجبر العقل على خدمة الحياة في كامل عنقوانها وليس العكس .

فاذا أراد إنسان التغيير في مجتمع يتمسّك بدين ما ، مقدراً ضرورة تحييد عقائد الناس عن عملية الإصلاح ، بمعنى دون أن يقيد إصلاحه بمبادئ الدين ، فإنّي أجزم بأنّه لو افترش الأرض ذهباً وأمطر السماء كتورا ، وقوم كلّ اعوجاج ، لما قبل التديّنون بذلك الدين ، منه ذلك ، بل لاستهلكوا جهده وتعبه دون أن يعيّنوه على أي شيء . إلّا ملزمين ومسخّرين غير مخبّرين .

(1) - الكثرة ليست نقبضا للوحدة ، لأنّها لا تفهم إلّا مع افتراض وجود الواحد أولاً . وهكذا لا يكون للواحد نقبض ، اللهمّ إلّا إذا اعتبرناه الوجود فيكون نقبضه العدم ، ولكن العدم نفسه هو إضافة سلبية للوجود الذي لم يعد موجودا في شيء . يفترض موجودا .

ولهذا السبب نجد أن المصيرين على التغيير بدون الاستفادة من عقائد الناس ،
يجبرون أولاً على اعتماد وسائل لاضعاف الإرادة الدينية ثم التحايل لانتزاعه من
قلوب الناس ، وهذا العمل نادراً ما ينجح ، بحيث يرتقب أن يطفو الذين بأكثر
قوة في مرحلة متقدمة من مراحل حياة الشعب ، فإذا افترضنا نجاحه بهذا
الخصوص ، فنادراً ما يثبت به الاصلاح . أما إذا ثبت فعلاً ، فسيصير لهذا
الانسان فيما بعد اتجاه في التغيير ، وتبقى قوته نافذة بقدر قوة إرادة أتباعه .
أما إذا فشل التغيير في مرحلة من مراحل ، شُيع صاحبه أو الاتباع من بعده
باللغة ، أو في أحسن الاحوال بضمهم الكتمان ويطوهم سجل التاريخ في حواشيه
، وكأنهم معرفة تريد الأجيال نسيانها أو إخفاها .

أما المصلح من الصنف الأول ، أي الذي يقيد إرادته بإرادة الرسول ، فإنه
سيجذب إليه محبة الناس ، وستدفعون إلى إعانتته والتعاطف معه ، بل كثيراً
ما نراهم يتنافسون فيما بينهم لأجل التضحية في سبيل نصرته ، وعندما يخسرون
الكثير لا يهتمون لذلك ، وعندما يكسبون بفضلته القليل يروونه عظيماً ، بل قد
يحتالون أحياناً في تغطية الخسارة بمكاسب مزعومة ، وذلك لمجرد تشجيع هذا
المصلح وشحن عزيمته ، وبعد هر يدوره عزاده وتجدد لطافته عندما يراهم ملتفين
حوله . ولكن ليحدث كل هذا يجب على هذا المصلح الذي رشح نفسه لعملية
التغيير أن يقنع الناس بأنه يمضي على الخط الأصيل لإرادة الرسول .

- ثالثاً : المصلح في مجتمع لانكي : (غير ملزم باتباع دين) :

لا يوجد المصلح في الدول الديمقراطية اللائكية بدأً من أن يكون " موظف
دولة " أو خادم حزب ، ولا إمكانية لأن يكون مسموع الصوت إلا في إطار ما
تسمح به المؤسسات السياسية والاعلامية والتشريعية ، وعليه أن يراعي مشاعر
الرأي العام حتى لا تتألب عليه الأغلبية " ويصدر البرلمان قراراً بشأنه " ، كما
عليه أن يلتزم بقواعد العقل المعترف به في المجالات والجرائد وفي دور الاشهار
ووسائل الاعلام .

ويتمثل العنصر المقدس في مثل هذه الدول ، والذي يجب أن يكون حجر
الزاوية في كل عمل إصلاحي ، في المصالح المادية المشتركة ، ويمكننا التمييز في

هذا الاطار بين إمكانيّتين للتغيير تشيران اهتمام المصلح : حركة داخلية وأخرى خارجية ، فإذا كانت الحركة الاولى يجب أن تهتدي بمراعاة مصلحة الأغلبية ، وتكون مجدية كلما أفادت أكثر في ذلك ، وهي لا تفيد إلا إذا مالت الاوضاع إلى الاستقرار ، فيكون مبلغ اهتمام المصلح وديدنه البحث في كيفية تأسيس الفعل الاجتماعي في نطاق مؤسسات عملاقة ممتدة الأصابع في كل اتجاه ، وذلك مع اغفال الروابط الانسانية من عواطف ومشاعر ، بل وإفراغ الوجدان من الاحساس بوحدة الهوية الذاتية والقومية ، وتحويل ذلك إلى رد فعل سلبي يقع امتصاصه واستهلاكه في الحركة الخارجية . وفي هذه العمليات نلاحظ تغلب العقل على الارادة ، لتتحول الدولة الى آلة ضخمة ، ويتحوّل البشر الى " قطع غيار " لا يبرز وجودهم إلا " تشحيم " هذه الآلة بأجسادهم حتى تستمر في الاشتغال ، وهكذا يضع (المواطن) العنصر الحي ويتهمّش ، في الكلّ الميّت (الدولة) .

أما الحركة الثانية فهي - بعكس الاولى - تغلب الارادة فيها على العقل ، لأنّ هذا المصلح سيجد حرية أكبر على التغيير في الخارج ، أكثر من تلك التي سيجدها في داخل بلاده . ويمكننا معاينة ذلك عندما نتتبّع أعمال المصلحين ، في الدول الديمقراطية المستقرة نسبياً ، الذين يلقون ترحيباً كبيراً بين شعوبهم إذا نجحوا في قلب الاوضاع الخارجية للدولة من الدول الاخرى لصالح شعوبهم ولتحقيق مكاسب لمواطني دولتهم ، في حين يجدون مقاومة صلبة لو عزموا على تغيير الاوضاع الداخلية ، بل سرعان ما تقع محاصرتهم بمجرد الشروع في ذلك .

3 - التغيير وطبقة المثقفين :

إنّ الدّ أعداء التغيير هم المثقفون ، لأنّ في إطار ثقافتهم يجد سواد الناس عقلهم ، بل لا سبيل للعامة في أن تهدي سلوكهم وقولا إلا بالقياس عليهم فهم المثل المحتذى ، كما أنّهم بما توفر لهم من خطابة وإتقان للكلام وقدرة على التبرير والعقولة يستقلّون من الأوضاع السائدة موضع الحراس من المدينة . ونظراً إلى كلّ ذلك ، فإنّ أي عملية تغيير لا تهدّدهم في مصالحهم فقط ، بل تستهدف أشخاصهم أيضاً . ولهذا السبب لا يكون من الحكمة الارتكاز عليهم في عملية التغيير ، لأنّهم ببساطة العبارة ، سيقومون بعكس ما هو مطلوب منهم (2) .

فاذا كان المثقفون يناصرون عقلنة الاوضاع واستقرار الأحوال ، ومكننة الناس اجتماعيًا ، ويتنافسون في تبرير الاعوجاج بالتحليل والحجج والبراهين والتماس الأعذار للمسؤولين والمديرين ، يصدقُ القول عندئذ : بأن أقلَّ الناس حظًا من كلِّ هذا ، وأكثرهم فقرًا منه ، هم أكثر الناس تحمسًا لعملية التغيير : بل إن هؤلاء ، إذا أحبوا صاحب التغيير وتعاطفوا معه ، يُعطونه عيونهم ليرى بها وأذانهم لسمع بها وأرجلهم ليمشي بها وأيديهم ليغير بها ، بل إنهم يهبون أجسادهم دروعًا له ، فليس من الحكمة إذن الاستخفاف بالعامَّة .

وتفسير ذلك يكمن في : كون العامة أُلصق بالحياة وأبعد عن العقل ، والحياة تنبني في صميمها على المغامرة والانفعال والعاطفة والحمية ، وأهم مقوم لها العزم والارادة . وفي حين نجد المثقفين يؤوكون ويفسرون ويبررون الأوضاع السائدة ويلهجون بالشائن والمستحسن من الأفعال ، وبالتالي هم يوطؤون الواقع في صورة ثابتة للعقل ، نجد العامة في مسرح الفعل والعمل تصارع تقلب الظروف ، وتختبر المصائب والمصاعب والمحن ، وتطمح في كل أن تتذوق فيه طعم المرارة إلى تغيير الأحوال نحو الأفضل والاحسن ، وهي من جهة أخرى تنظر الى المثقفين وكأنهم في عالم غير العالم الحقيقي هو عالم من الورق : (المجريدة ، والكتاب ، والمجلة ، والكراس ... الخ) <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

• ويوجد صنف آخر من " المثقفين المنبتين " الذين تلقوا ثقافتهم في غير موطنهم أو مجالهم الحيوي ، فجاؤوا الى بلادهم بعقل غيرهم ، فهؤلاء سيناصلون التغيير في اتجاه واحد ، وهو ذلك الذي سيوجد لهم فضاء يعيشون فيه ، وسيحوك المجتمع الى بيت يقبلهم ، مع العلم أن كل واحد منهم يمثل فتحة في البيت يتسلل عبرها كل غريب ودخيل ، فهؤلاء لا يعادون التغيير الأصيل المبني على ثوابت الهوية فقط ، بل يكونون أشدَّ عداً للعامة أيضا وبالتالي فهم يعادون مقومات الحياة في المكان الذي يوجدون فيه . فهؤلاء يشكون من قصر الذاكرة ولا يعترفون بأصلهم ، بل قد

(2) - يوجد توضيح أكثر لهذا الموضوع في مقال ما بين الفكر والفهم من مفارقة ...
الاتحاد عدد 39 - مارس أبريل 1993 .

ينتسبون بعقولهم إلى ثقافات لأقوام يسخرون منهم في السرّ ويمتدحونهم في العلن ، ويكرمونه على أخطائهم ، ويستعملونهم معاول لهدم بيوت أهاليهم .

4 - التّغيير ورجال الفكر :

المفكر أعلى درجة في الانسانية من المثقف ، وأكثر تصالحا مع العامة ، وهو لا يعلو المثقف بسعة علمه وشمولية معارفه ، بل قد يكون زاده في كلّ هذه الامور متواضعا جدا ، وأقلّ حظا من كثير من الناس ، وإنّما هو يتفوّق عليهم جميعا بقدرته على التحكّم في اللغة وفي توظيف المفاهيم ، ويتفوّق أيضا بذكائه الحادّ في حدسه لعيوب الحاضر وتوقّعه لأحداث المستقبل . والذي يميّز المفكر أيضا أنّه يقدّم الارادة في الرتبة على علمه أو ثقافته ، بحيث تعتبر معارفه بمثابة الوسيلة والأداة ، لذلك فهي لا تدخل في مكونات شخصيته أو ثوابت هويته إلا بشكل عرضي ، بل هو من هذه الناحية أقرب في حقيقته من حقيقة العامة لأنّه ألصق بدوافع الحياة ومصادر الارادة . فتكون أقواله ومعارفه وثقافته ، تبعا لما تقدّم ، لأجل تجسيم إرادته وبلورة قصده ، وليس كما هو الشأن بالنسبة للمثقف الذي تكون ررادته تبعا لثقافته . فالمفكر يريد ما يقول ، ولا يقول ما يريد لأنّ إرادته ترتبط بقصده لا بقوله . وليس من السهل أن يصير الانسان مفكرا ، لأنّ هذا التحرك يرتبط بخصائص بيولوجية وبطريقة معينة في تمثّل اللغة منذ بداية تلقين الطفل الكلام ، وأخيرا بنوعية العلاقة التي كانت تشده بمرتيبه الذي سهر على تعليمه وأشرف على تأديبه (كلاب أو الام أو المعلم ...) (3) ، لهذا السبب لا يوجد في الشعب الواحد إلا عدد قليل من المفكرين .

والمفكرون من الناس ، هم الأجدر بالتخطيط لعملية التغيير ، لأنّهم الأقدر على استشراف المستقبل ، وصاحب التغيير الحقيقي ، إن كان من الذين انتخبهم التاريخ لهذه المهمة ، فيجب أن يتحلّى بخاصية ذهنية ، تفوق في الأهمية ملكة التفكير وهي ملكة الحدس ، إذ باعتمادها سيتمكّن من التمييز بين الرجال الذين سيعتمد عليهم في عملية التغيير : فيكلف المفكرين بالتخطيط ورسم الأهداف الحينية والبعيدة ، ويُلزم المثقفين من جهة أخرى بتوضيحها والاشراف على تنفيذها

(3) - يوجد توضيح أكثر لهذا الموضوع في مقال « الأمير » ، الانحاء 52 ، أكتوبر 1994

وذلك دون أن يُهمل مراقبتهم ، وأخيرا ، يجب عليه أن يبين بصدق للعمامة أن إرادته من إرادتهم ، ويقنعهم من خلال إنجازاته واختياراته أنه بصدده تجسيم طموحاتهم في الارتقاء إلى مستوى العزة والسيادة الجماعية والحياة الكريمة ، دون أن يطعن في ثوابت الهوية فيهم ، لأن بها اختلافهم وممكن اعتزازهم وتفردهم في الوجود عن غيرهم ، ويجب أن يحذر من أن يتناول على مصادر أصالتهم ، بل عليه أن يفعل عكس ذلك ، لأن إرادته تتغذى من إرادتهم وأصالته يستمدّها من أصالتهم .

والمفكرون من الناس ، هم الأجدر برعايته ، لأنهم الأكثر حرية في ذواتهم ، والأقدر على التخلص من القيود والمعوقات (4) ، وهم عندما يستوضحون الأشياء ، فإنهم لا يفهمونها انطلاقا من مرجعيات معرفية ، ولا يعتمدون على الذاكرة لفهمها ، كما يفعل المثقفون لما يتصفحون الكتب والمذكرات ، ويلجؤون الى الدراسات المكتوبة من المختصين ، ويستنسخون مشاريع غيرهم في التخطيط : فهذه كلّها تدوّن نظريات لتجارب مستهلكة ، وهي وإن كانت تفيد ، فإنما تصلح لفهم الماضي والاعتبار به في الحاضر وذلك لتجنب الوقوع في خطأ سبق حدوثه في ظروف مشابهة . أما بخصوص التخطيط للمستقبل فهي لا تفيد إلا قليلا ، اللهم إلا إذا أردنا لأيماننا وأعرامنا المقبلة أن تكون نسخة من الماضي ، أو وجها مائلا للحاضر ، وهذا غير ممكن إلا في مجتمعات بنعدم فيها المفكرون ، كالمجتمعات البدائية أو القبلية ، حيث ينصهر الفرد في المجموعة . ولكن هل يُقصد من هذه المقارنة الخط من أهمية المثقف ؟ لا ، فعير المثقف تعي العمامة نفسها ، ويستقرئ الانسان واقعه . ويفعل الثقافة يقع التقرب بين المجالات المختلفة والآراء المتباينة ، وتتوحد أشكال الفعل وشتى الصناعات والفنون والاختصاصات والبراعات في مستوى الادراك والفهم . فالمثقف هو بمثابة النافذة التي تنفتح على عوالم مختلفة لتظهر كإطار لشاشة تنقل زحما من الصور المتنوعة للحياة المعيشية . وبالجملة يمكننا المثقف من فهم الواقع وتعقله ، وليس له دراية بأساليب التعبير ولا في حميته حماس لذلك ، بل على العكس من ذلك ، إذ

(4). يستحسن الرجوع الى مقال اقترانات اللغة وقرناؤها ١٠٠ الاتحاف عدد ٤ - ماي 1994

تجده يدأب بعقله ليجعل من المستقبل حاضرا ، لأنه يخشى تقلب الاحوال الذي إن وقع يجرّ الى تغيير العقل والفهم فتكون الصورة العقلية التي قام المثقف بنحتها قد تجاوزها التاريخ ، وبدأت صورة أخرى تأخذ مكانها .

والمفكرون بخلاف المثقفين ، يعتمدون في سبر الامور ، وفي فهم الاشياء ، على فعل القصدية (5) ، وهي تعني ربط علاقة مباشرة بالموضوع الذي نريد فهمه ، والنظر في خصائصه ، دون الاعتماد على الوصف اللغوي ، أو جمع كل ما قيل أو كتب في شأنه .

والقصدية هي طريقة بيولوجية في الفهم ، توجد كخاصية تميز كل الحيوانات لتتحكم في ردود أفعالها . ولكن هذه الخاصية تُحجب وتُتغصن عندما يستعيط عنها بما في الذاكرة من مرجعيات وبما في الكتب من معارف وأفكار ، والذي يميز قصدية المفكر أنها تمسك بالسوعي كأداة ، وأن الوعي نفسه يكون مرتدًا على ذاته . الأمر الذي يدفع بالمفكر إلى أن يرتقي إلى درجة السوعي بالسوعي .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وتعتبر الديمقراطية هي المناخ الأفضل والثروة الأخصب للمفكر . لأن الانظمة الاستبدادية تعاكس طبيعتهم الحرة ، فهي أنظمة للتدجين وقتل روح التنافس وقطع الطريق أمام المبادرات التي تحمل الخلق والابداع .

(5) - يستحسن الرجوع الى مقال << ما نأمله من دولة المؤسسات والمجتمع المدني >> ، ومقال << الذات والهوية ومبادئ الحرية >> ، نشر الاول في الاتحاد عدد 38 . جانفي / فيفري 1993 . والثاني : الاتحاد عدد 41 جوان 1993 .

في الذكرى العاشرة للتحوّل : التغيير والعمل الحكومي

بقلم : محمد بن الاصفر المحامي

عندما أعلن التحوّل عن نفسه صبيحة 7 نوفمبر 1987 ، اتخذ شكل الأدبيّات السياسيّة من خلال ما عرف ببيان السّابع من نوفمبر ، ثمّ اكتمل المشهد بعد أشهر بوثيقة ثانية هي الميثاق الوطني ، ... ولأنّ الأدبيّات في حاجة الى ترجمة إلى عالم الحقائق ، فإنّه لا بدّ من وضع الصّيغ العمليّة والآليّات ومناهج العمل للانتقال من الخطاب الى الممارسة اليوميّة ...

فهل برهنت العشريّة الاولى للتحوّل على ذلك من خلال العمل الحكومي ، ولقد اخترنا العمل الحكومي حتّى لا تقع في الشّعارات التي قد تكون جوفاء ...

ولأنّ العمل الحكومي منذ التحوّل لم يعد ينطلق من القصبة فقط ، بل ومن قرطاجة أيضا ، فإنّنا سنبدأ من رأس هرم السّلطة التّنفيذيّة باحثين عن تجليات الاضافة في العمل الحكومي خلال العشريّة .

1- قلم الاستشارة لدى رئاسة الجمهوريّة :

لم يسبق لتونس أن شاهدت قلم الاستشارة لدى رئاسة الجمهوريّة يغطّي كلّ العمل الحكومي ، فليس هناك وزارة أو كتابة دولة ، أو مندوبيّة ، أو ديوان ... لا تجد مخاطبا لها في الرّئاسة من ذوي الكفاءات العالية ، أو التّجربة الصّلبة ... ويتدرّج سلّم المستشارين لدى رئاسة الجمهوريّة ، من المستشار الى الوزير المستشار مرورا بالمستشار الأوّل ، وهذا الصّنف هو في الغالب من قدماء الوزراء وكثّاب الدّولة والسّفراء ، ومن الأساتذة الجامعيين كذلك ، والخبراء كلّ في ميدانه ... وذلك الى جانب المكلفين بمأموّريّات ، والملحقين بالرّئاسة ... وينسّق عمل الكلّ ، الوزير مدير الدّيوان السياسي ، وقد حدث أن انظّم الى طاقم الاستشارة ، مستشار خاص لرئيس الجمهوريّة برتبة وزير دولة ، التي تعني في النّظام التّونسي الوزير الممتاز خلافا لما هو في الأنظمة الانقלו ساكسونيّة ، حيث أنّ هذه المرتبة دون الوزير

وتساوي رتبة كاتب دولة .

ومن خلال قلم الاستشارة لدى رئاسة الجمهورية ، يحكم رئيس الجمهورية تسير العمل الحكومي بالتنسيق مع الوزير الأول ، وإلى جانب مجالس الوزراء العادية منها والاستثنائية فإن ما امتاز به عمل الرئاسة هو عقد المجالس الوزارية المضيق لكل قطاع والتي كثيرا ما تتعقد على إثر معاناة وطنية يجربها رئيس الدولة بنفسه فتفضي تلك المجالس إلى تدابير عملية ... ومن خلال اللقاءات الدورية بالوزير الأول فإن رئيس الدولة يطلع باستمرار على نتائج المجالس الوزارية التي يشرف عليها الوزير الأول ...

كل هذه المناهج وطرق العمل تجعل رئيس الدولة مطلعاً على كل الملفات وموجهاً لها طبق مصلحة الوطن وفي حدود الامكانيات المتاحة .

2- الوظيفة السياسية في العمل الحكومي :

لئن حافظت الحكومة على الأقاليم الكلاسيكية في إطار الوظيفة السياسية لعمل الحكومة مثل وزارات العدل والداخلية والدفاع والخارجية والاعلام ، فإن التحول قد جاء بالتغييرات التالية :

<http://Archivebeta.Sakhria.com>

2. أ - السياسة الداخلية :

لقد أثرت ثقافة حقوق الانسان على العمل الحكومي ، فلم يعد الملف من اختصاصات المناضلين في صلب الجمعيات غير حكومية والأحزاب لوحدها ، وامتدت من فضاء الضغط إلى فضاء الفعل أو (القرار) وأصبحت خلايا حقوق الانسان تجد لها عنوانا في دواوين الوزراء مثل وزارة العدل ، وفي أعلى مستوى وذلك بأحداث الهيئة العليا لحقوق الانسان المرتبطة عضواً ووظيفياً برئاسة الجمهورية ... كما أصبحت موضوع بحوث بمركز الدراسات القضائية التابع لوزارة العدل ...

2. ب - السياسة الخارجية :

لقد وقع مضاعفة العمل التقليدي ، الدبلوماسي والقنصلي لوزارة الشؤون الخارجية ، بعمل جديد من خلال وزارة التعاون الدولي والاستثمار الخارجي كتجسيم

للرؤية الجديدة للسياسة الخارجية، وستعود لذلك عند الحديث عن الوظيفة الاقتصادية . ولأن رئيس الدولة قد كان من المتحمسين لبناء اتحاد المغرب العربي ، فلقد بعث في إطار وزارة الخارجية كتاب دولة للشؤون المغاربية تجدد كيانها القانوني في ميثاق دول اتحاد المغرب العربي ... وكان أن امتد عمل هذه الكتابة في أحيان عديدة إلى الشؤون العربية ...

كما أحدثت كتابة دولة للشؤون الأفريقية في نفس الرؤية ، وفي إطار نفس السياسة الخارجية أحدثت وكالة الاتصال الخارجي تابعة لمصالح كاتب الدولة للاعلام بالوزارة الاولى تعنى بالتعريف بالوجه الحقيقي لتونس في البلدان الشقيقة والصديقة ...

وفي نفس التوجه ألحقت وكالة التعاون الفني بوزارة التعاون الدولي تدعيما لحضور تونس في ميادين التكنولوجيا والثقافة والتعليم في الخارج .

3- الوظيفة الاقتصادية في العمل الحكومي :

مع الابقاء على الاقسام الكلاسيكية للوظيفة الاقتصادية مثل وزارات التخطيط والمالية والفلاحة والاقتصاد (صناعة - تجارة - نقل - طاقة) فإن الرؤية الجديدة للوظيفة الاقتصادية قد تجسست فيما يلي :

أول ما وقع الحرص عليه ، هو صيانة الاملاك العمومية باعتبارها ملكا للمجموعة الوطنية ، هو إحداث وزارة أملاك الدولة والشؤون العقارية ، وهي وزارة أفقية ، تمتد في صلاحياتها الى الوزارات الأخرى كالزراعة ، والتربية ، وغيرهما .. وكانت قبلها مجرد إدارة عامة لأموال الدولة تابعة لوزارة المالية ، وتعمل بعقلية غير متطورة باعتبارها ورشة جمعية الاوقاف .. فأحصت هذه الوزارة العقار العمومي القاري منه والبحري ، وأحصت المنقولات وفي مقدمتها أسطول السيارات الادارية ، الى الأجهزة والعتاد وغير ذلك ... ووضعت حدا لادار الملك العمومي وما زال العمل متوصلا .

وإذا كان رئيس الدولة لا يرأس من المجالس العليا ، إلا مجلس الدفاع الوطني ، فيما يختص الوزير الأول برئاسة المجالس العليا الباقية ، فإن رئيس الدولة قد

أصبح رئيس مجلس التصدير . وأن الارتقاء بشكل رئاسة هذا المجلس يستجيب للحاجة الملحة للتصدير كمنقذ رئيسي للنهوض بالاقتصاد الوطني ... ولأن المياه تشكل قضية استراتيجية في الميدان الفلاحي فلقد وقع أحداث مصالح كاتب الدولة مكلف بالموارد المائية في صلب وزارة الفلاحة ، لتنفيذ مخطط طموح برمى الى إقامة مآت السدود واحداث البحيرات المائية .

ولأول مرة كذلك تحدث في وزارة المالية مصالح كاتب الدولة للميزانية ... ولأول مرة كذلك تحدث في صلب وزارة التخطيط مصالح كاتب الدولة مكلف بالمساهمات العمومية ، وذلك خاصة لاحكام عملية الخوصصة حتى لا يدخلها الاضطراب ... والخصوصية أمر حتمته أوضاع الاقتصاد العالمي .

ونعود الى وزارة التعاون الدولي والاستثمار الخارجي بعد أن تعرضنا لها في إطار الوظيفة السياسية (السياسة الخارجية) ، لنبين أن إدارة التعاون الدولي بوزارة الخارجية ، قد ارتقت في وقت ما الى مصالح كاتب الدولة للتعاون الدولي بوزارة الخارجية ثم استقلت بعد التحول كوزارة على رأسها وزير وكاتب دولة لتضم اليها الاستثمار الخارجي ... وهو مظهر جديد في العمل الحكومي كانت تضطلع به وكالة النهوض بالاستثمار ... ويعد هذا القلم الحكومي بعكس الاهتمام الرئيسي بجلب الاستثمار الأجنبي كمنفردة من منفردات العنونة المفروضة على كل بلدان المعمورة مثلما سبق بيان ذلك عند الحديث عن الخصوصية ...

4- وظيفة التكوين والثقافة والشؤون الاجتماعية :

إن هذه المنظومة ، من منظومات العمل الحكومي قد تأثرت بالتحول الذي طرأ على العمل الحكومي .

4.أ- التكوين :

مع بقاء الديناموس الذي هو وزارة التربية أو التعليم ... فإن التكوين قد شهد عدة إضافات .

فالتعليم العالي انفصل من جديد في شكل وزارة ، وحدثت الجامعات ولكل جامعة رئاسة خاصة بها (RECTORAT) ، وهي جامعات قطاعية في العاصمة

(جامعة الزيتونة ، وجامعة الآداب ، والعلوم الانسانية والفنون ، وجامعة الحقوق والاقتصاد والتصرف ، وجامعة الطب والعلوم) وهي جامعات متعددة الاختصاصات ، داخل الجمهورية (جامعة الوسط بسوسة ، وجامعة الجنوب بصفاقس) ... مع احداث اقطاب جامعية قد تنحوي الى جامعات في أنحاء مختلفة من الجمهورية ... وانفصل البحث العلمي بدوره وشكل مصالح كاتب دولة لدى الوزير الأول ، ثم أضيف له ملف التكنولوجيا .

وانفصل التكوين المهني عن وزارة الشؤون الاجتماعية وشكل وزارة للتكوين المهني والتشغيل ، ومكن من تعديل شهادات التكوين المهني مع شهادات التعليم العام ، وعُوك على هذه الوزارة بالذات في ميدان التأهيل ، باعتبار لا تأهيل شامل إلا بتأهيل اليد العاملة المختصة .

أما بالنسبة للتعليم الاداري ، فإنه لم يعد مقتصر على ما تسديه المدرسة القومية للإدارة من خدمات في تكوين الاطارات ، وبعث المعاهد العليا المتخصصة في أكثر من وزارة ومنها : المعهد الأعلى للقضاة بوزارة العدل وهو يكون الاطارات القضائية وشبه القضائية لحساب وزارة العدل ، كما يكون الاطارات العليا لوزارة أملاك الدولة والشؤون العقارية ، كما بعث معهد للدراسات العسكرية العليا ، عدا مدرسة الاركان ، وبعث معهد الدراسات الديبلوماسية بوزارة الخارجية ، ومعهد النهوض الاجتماعي التابع لوزارة الشؤون الاجتماعية ... والمدرسة الوطنية للديوانة بوزارة المالية ... الخ

4. ب- الثقافة :

مازالت وزارة الثقافة تؤطر حقل الابداع والنشاط الثقافي مستعينة بشبكة اللجان الثقافية واللجنة الثقافية الوطنية واللجنة الوطنية لليونسكو والألكسو ... ورغم الخصوصية ، والتعويل على المبادرة الفردية ، فإن حجم الدعم في الميدان السينمائي لم يبلغ مقدار : ثلاثمائة ألف دينار إلا في هذه العشرية ، وأوكل من تحصل عليها هو شريط : الرديف 54 .

وأما أهم انجاز ثقافي فهو تحويل بيت الحكمة الى مجمع للعلوم والآداب والفنون ، وهو ما يساوي الأكاديمية أو المجمع في الخارج ... وبالمناسبة نرجو أن تعود

الأكاديمية الى سالف عهدها في النشاط العلمي الأساسي .
على أن أبرز ما حدث في الميدان الثقافي هو الارتقاء ، بإدارة الشعائر الدينية ، الى مصالح كاتب دولة لدى الوزير الأول مكلف بالشؤون الدينية ، ثم الى وزارة للشؤون الدينية .

هذه الوزارة لئن كان الهدف الأساسي من إيجادها هو المزيد من رعاية بيوت الله والقائمين بالشعائر ، فإنها قد أصبحت ناطقة الى جانب وزارة الشؤون الثقافية بالخطاب الثقافي ، وعاملة على بيان ثوابت الهوية الثقافية لتونس من عروبة وإسلام قوامه الخيار السني ، والمذهب المالكي ، والعقيدة الأشعرية .

ولم تعد هذه الوزارة تكتفي بالنُدوة الفكرية المولدة بالقيروان ، إذ أصبحت لها نشاط فكري كثيف يعرّف بقمم الاعتدال والتسامح والحداثة من خلال مسيرات شخصيات فكرية تونسية مثل المشايخ : الطاهر بن عاشور ، والفاضل بن عاشور ، ومحمد التخلي ، ومعاوية التميمي .. وغيرهم



4-ج- الشؤون الاجتماعية :

بعد خروج وزارة التكوين المهني والتشغيل من جبة وزارة الشؤون الاجتماعية ، ظلت هذه الأخيرة تعتنى بالشؤون الاجتماعية الحقيقية ، ومنها خاصة النهوض الاجتماعي كالمستين وفاقدي السند والمعاقين وغير ذلك ...

والجدید في الوظيفة الاجتماعية لعمل الحكومة يتمثل في بحث مصالح كتابة الدولة برئاسة الجمهورية المكلف بالتضامن الاجتماعي وهو التطور النوعي والعضوي والوظيفي لصندوق التضامن الوطني المعروف بصندوق 26 - 26 (إشارة الى عدد الحساب الجاري بالبريد المختص بتنظيم وعقلنة العمل الاجتماعي) .. يتمثل عمل هذا القلم بالنهوض بمناطق الظل المفتقرة لأبسط ضروریات الحياة ، من مسالك تقوم مقام الطرقات ، والماء الصالح للشرب ، والنور الكهربائي ، والمدرسة ، والمستوصف ...

وكان أحدث كذلك صندوق الزكاة ، في نفس هدف عقلنة العمل الاجتماعي . وأحدث أخيراً بنك للمشاريع الصغرى للأخذ بيد ضعفاء الحال لبعث أو

5- وظيفة التجهيز والمرافق :

لئن لم يطرأ جديد على هيكله وزارة التجهيز (الاشغال العامة) والاسكان (التعمير) ، فإن دخول الجيش في الحياة المدنية قد دعم قطاع التجهيز سواء في بناء الطرقات مثل الطريق الرابطة بين توزر من جهة وشبيكة ، وتمغزة ، وميداس من جهة ثانية ، بما أحي السباحة الصحراوية بالجهة .

لكن الجديد هو إحداث وزارة للبيئة لأول مرة جمعت بين نشر الثقافة البيئية بجميع وسائل الايضاح من جهة ، وتحقيق المنجزات البيئية من محميات طبيعية ، ومناطق خضراء ، وسنّ السنّ الحميدة في مجال المحافظة على المحيط .

أما عن المرافق فإنه الى جانب وزارة المواصلات ، التي أدخلت القطاع المذكور في الدورة الاقتصادية ونشرت الثقافة التكنولوجية ، فإن بعث مصالح كاتب الدولة لدى الوزير الأول المكلف بالاعلامية تظل أكبر ثورة في مجال المرافق الادارية وأبرزها ، بما صير مرفق الادارة ينال بأكثر سهولة من طرف المواطن وأكثر نجاعة . كما بعثت مصالح الموفق الاداري لحل المشاكل بين المواطن والادارة بأقل وقت مما يستغرقه القضاء بتعدد درجاته وتشعب إجراءاته دون أن يعوض جهاز القضاء سواء الاداري أو العدلي .

وتدعم جهاز الرقابة الادارية والمالية الموجودة بالوزارة الاولى ، وبوزارة المالية ، بهيئة الرقابة العليا الملحقه بمصالح رئاسة الجمهورية ...

وفي ميدان الصحة أحدثت المؤسسات العمومية الاستشفائية ذات الاستقلال واللامركزية الادارية والتقنية ...

ملاحظة :

اُستعملت لفظ «> قلم >> كمقابل للفظ الأتي (DEPARTEMENT) وذلك بقطع النظر عما إذا تعلّق الأمر بقسم أو بمصلحة أو بإدارة أو بكتابة دولة ، أو بوزارة .

العمل الجمعياتي بدعم لسمار التغيير

” لقد فتحنا المجال أمام الحياة الجمعياتية إيماناً منا بدورها في تحقيق مشروعنا الحضاري ” .

من خطاب سيادة الرئيس في 23 / 7 / 1993

بقلم : سعاد الحسروبي

لقد راهن سيادة الرئيس زين العابدين بن علي صانع التغيير ومنقذ البلاد والعباد على نضج ووعي التونسي كما جاء في بيان السابع من نوفمبر المجيد >> ... إن شعبنا بلغ من الوعي والنضج ما يسمح لكل أبنائه وفنائه بالمشاركة البناءة في تصريف شؤونه في ظل نظام جمهوري يولي المؤسسات مكانتها ويوفر أسباب الديمقراطية المسؤولة ... >>

ولأن العمل الجمعياتي مدرسة للديمقراطية كما جاء في خطاب سيادة الرئيس : >> الجمعية قبل كل شيء فضاء للتدرب بالمشاركة والتكوين على قيم الديمقراطية وخدمة الصالح العام والمنافع المشتركة والتدريب على احترام الرأي المخالف والتفاعل مع الغير وشحذ مواهب الابداع والقدرة على استنباط الجديد وتنمية روح التضحية والبذل بعيدا عن الحسابات المنفعيية أو المصالح الأنانية >> .

لأن العمل الجمعياتي مدرسة للديمقراطية ولأن الجمعيات رافد أساسي من روافد المجتمع المدني ولأن المجتمع التونسي عرف العمل الجمعياتي منذ قرون طويلة وخلال المعركة التحريرية وعند بناء الدولة العصرية ، حيث فتح مشروع التغيير حرية الانخراط والعمل الجمعياتي المشترك ووفر أطر التشجيع والتنسيق والتأطير بجديّة وفعالية لم تسبق .

ولقد أولى سيادة الرئيس عناية فائقة بالعمل الجمعياتي بدعم المنظمات والجمعيات كي تحتلّ موقعها كشريك فعّال في التنمية الشاملة في مختلف مجالات ومشاغل حياة المواطنين . كما تمّ تنقيح قانون الجمعيات للمرة الثانية سنة 1992

بمقتضى القانون عدد 25 لسنة 1992 دعما للحريّات وتنمية للعمل الجمعياتي ولقد تضمّن هذا القانون بالأساس :

- تصنيف الجمعيات الى 8 أصناف حسب الغايات التي ترمي اليها بهدف ترشيد التّكامل بين الدّولة والجمعيات وتمكينها من ربط قنوات ناجعة بمختلف الهياكل الاداريّة .

- تخليص الجمعيات من التّوظيف الحزبي والتّأسيس بمنع الجمع بين هياكل الاحزاب السياسيّة والمسؤوليات القياديّة في الجمعيات .

- فتح العمل الجمعياتي لكلّ ذوي العزائم الصّادقة بعيدا عن كلّ اقصاء أو احتواء .

هذا وتقدّم الدّولة عديد المنح والمساعدات للجمعيات بمختلف أصنافها لتدعيمها ومساعدتها عن طريق الوزارات والمؤسسات العموميّة والجماعات الجهويّة والمحليّة إضافة الى مساهمة الدّولة مباشرة في انجاز مشاريع ضمن برامج بعض الجمعيات وتشريك الجمعيات في انجاز مشاريع حكوميّة .

كما تقرّر يوم وطني للجمعيات يحتفل به كلّ يوم 23 زفريل من كلّ سنة .
إجراءات وقرارات عديدة اتخذتها قيادة العهد الجديد لدفع العمل الجمعياتي .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

العمل الجمعياتي انخرط في المشروع الحضاري للرئيس بن علي :

نتيجة لهذه الارادة السياسيّة ولما تحقّق من دعم فعلي للعمل الجمعياتي ، فاق عدد الجمعيات المحدثّة بعد التحوّل بلغ 4000 جمعية في مختلف المجالات ، العلميّة والتّنمويّة والثقافيّة والفنيّة والرياضيّة والاجتماعيّة والوداديّة وذات الصّبغة العامّة .

وكذلك لما أصبح بنعم به التّونسي اليوم من أمن واستقرار ونموّ وازدهار وتحابب وتضامن ووفاق وأصالة وهويّة حبّ للوطن ووفاء للشّهداء ، واعترافا بالجميل لمن أنقذ البلاد ويدلّ الخوف أمنا واليأس أملا ورفع رأس تونس عاليا بين الأمم وما فتحه عهده السّعيد من المجالات قسيمة للعمل والكدّ والبذل والتّضحية والعطاء ، والرقيّ بتونس إلى أعلى المراتب .

كما جاء في خطاب سيادة الرئيس : إن العمل في صلب الجمعيات من أنبل مظاهر تكريس المواطنة في أنبل أبعادها . فالمواطنة لا تكتمل معانيها بدون نسيج جمعياتي متطور وفاعل فالعمل الجمعياتي هو تعبير عن المواطنة بالمشاركة البناءة ، ومثل المسؤولية الجماعية لحماية المجتمع والبذل لتحقيق التنمية الشاملة والولاء للوطن والارتباط به وهو ما أمكن تحقيقه بفضل ما وفّرت قيادته العهد الجديد للجمعيات من حرية الفكر والمشاركة وابداء الرأي واقتراح الفكر بالعمل للحاضر والمستقبل وتكريس الديمقراطية ودعم مجهودات الدولة . وهكذا أصبح العمل الجمعياتي اليوم من الآليات الناجعة للتخراط في مسيرة التغيير والسير بتونس نحو الأفضل

* في دعم التجمع للعمل الجمعياتي ، دعم لمسار التغيير :

إن التجمع الدستوري الديمقراطي الذي انتمته سيادة الرئيس بن علي في مسيرة التغيير بتحمل مسؤولية حضارية هامة تتمثل في إنجاح التحول الديمقراطي الذي تشهده البلاد . لذا دأب التجمع على دعم العمل الجمعياتي لترسيخ أسس المجتمع المدني والمحافظة على استقلالية العمل الجمعياتي وهو ما يبرز بوضوح من خطب سيادة رئيس الجمهورية وكذلك من لوائح مؤتمري الانتفاذ والمثابرة للتجمع . وتؤكد هذه اللوائح على ما بوليه التجمع من أهمية للعمل الجمعياتي الذي يعتبره مهمة حضارية ومن واجبه أداؤها بحكم موقعه السياسي المتقدم . فهي فضاء للمواطنة والديمقراطية والبذل والعطاء .

ولقد دأب التجمع على معاضدة العمل الجمعياتي بتنظيم الندوات المختصة وطنياً وجهياً ومحلياً لتكوين مناضليه في كل المستويات من خلال حلقات التكوين القاعدي ومنتديات الفكر السياسي واصدار منشورات تساهم في نشر مفهوم العمل الجمعياتي وتعرف به إضافة الى كل ما ينشره التجمع في إطار الثقافة السياسية للمشروع الحضاري لتونس العهد الجديد اعتباراً بأن العمل الجمعياتي هو الركيزة الأساسية للمجتمع المدني المنشود وفقاً لما جاء في خطاب سيادة الرئيس : >> إن التكامل بين دور الدولة ودور النسيج الجمعياتي تكريس لقيمة المشاركة وتجسيم لفضيلة البناء الذاتي .

* العمل الجمعياتي وكسب رهان التأهيل الشامل :

لقد حمل سيادة الرئيس التجمع مسؤولية كسب رهان التأهيل الشامل للرقي بتونس الى مصاف الدول المتقدمة في مطلع القرن الحادي والعشرين . وهي مسؤولية جسيمة انطلق التجمع في أدائها بتأهيل مناضليه وهياكله وملائمة خطابه وأنشطته وأساليب عمله مع مقتضيات المرحلة بالاضافة الى دوره الريادي في تعبئة القوى وتأطيرها للبلد والعطاء والعمل لكسب الرهانات ونشر ثقافة العمل والامتياز في صفوف المجتمع .

وللجمعيات دور هام في هذا المجال بما يوفره العمل الجمعياتي من حصانة للمجتمع المدني ووسيلة للتقدم وقضاء للاصلاح وآلية مكتملة لمجهود الدولة ومؤطرة لمبادرات الافراد والجماعات في نحت المستقبل الافضل .

وفي الختام تمثل هذه المداخلة تقدما لأهمية العمل الجمعياتي في تونس العهد الجديد ومدى عناية صانع التحول بهذا الجانب كذلك حرص التجمع الدستوري الديمقراطي على دعم هذا العمل بتوسيع نسيجه واحاطته بكل أسباب الانتشار والنجاح .

ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>



تونس الجميلة :

في الشعر التونسي الحديث

بقلم : خالد دكاوي

مدخل:

>> تونس الجميلة مدار مشعّ باتجاه الحياة ، يورق ضياءً من فاتحة الرقيف ،
ويشمر نهارا من تجليات الصحو ، الشعر هنا والآن معلن في مكاشفة حرقه حبه
ليخضّر الوطن فيستدرج الصباح إلى أوّل الشعر ، لتكون تونس طفولة الاشرار ،
مبحثا في الشعر التونسي الحديث بدءا بالشابي وصادح وخريف مروراً بالميداني بن
صالح وجعفر ماجد ونور الدين صمود وأولاد أحمد وصولاً إلى الماجري وزكّار
والشرقي >> .

(1)

الشابي كان يذيب نفسه أبياتا وأوزانا من أجل عينيها ليعث عبر فتنها
السّاحرة حرارة إيمان وصدق وجدان وتطلع عنقوان فراح يكتب تونس الجميلة بقلبه ،
بفني نفسه في حبّها ، يحفل بأهوانها وسط دوامات الأحلام الياقة .
أنا يا تونس الجميلة في لَجّ

الهوى قد سبحت أيّ سباحة

شرعتي حبّك العميق وإنّسي

قد تذوّقت مرّه وقراحة (1)

هذه الشّفافيّة الجارحة كأس مترعة بالدّموع شرعتها الحبّ العميق والفناء في
الصّباية والشّاعر الموجد بحبّ بلاده يمضغه قلب الليل ، يردّد أغاريد الحارقة فوق
القمة السّماء ، تونس عنده دائرة الضّوء ، فوضى الجمال الأثيق ، تشكّل الاشتعال
للذّيد عشية الايغال في الحبّ .

تونس تحمل فانوسات النّور إلى أعالي السّماوات تهطل سبائك بروق مبهوثة في
أحشاء الشّمس ، الأمكنة صارت ريش وميض متصاعد في سكون الشابي عاشق لا
بخشى وإن سفكت دماء ، لا يخشى الموت من أجل استيقاظ الحياة ،،، والشّاعر

هو المومل أبدا في أنس وطنه يقول منور صمادح
عشقتك حتى ألفت السهر
وسامرت فيك الدجى والقمر
أبا تونس الأنس أنت المنى
وأنت الحديث وأنت الخبر

تونس الأنس مأخوذة بالافتتان المسحور ، تذيع سرّ لوعتها للعاشقين ، تتجاوز
المعنى شوقا لتسبيحة الصّباح ، ملامحها نشيد الأزمنة ... والشاعر بين صوته
والصدى يواصل تحرّقه ألفا ينساب حديثا طازجا .

ملكيت من الحسن آياته
وحزت من الفضل ما قد بهر
وأصبحت في الكون أنشودة
يعيد صداها لسان القدر (2)

الوطن هنا صباحات العمر أنشودة الأناشيد ، أزاهيره فيض وجدان يحتوي
العالم بصوفيّة عشقه لدروب الهوى والشاعر في عمق التراب والهواء والدم تردّد
تونس الحبّ والأنس والسحر والأمنيات ، تونس خرافية الحسن ، شيدت الافتتان
المضي ، هي تونس يقول عنها الخريف :
<http://Archivebe>

يا تونس الحبّ يا
أزكى الأمانى المزهرة
عودي فلي شوق طويل
سوف لن أختصره
يا منيتي يا سلوتي
يا درّتي المعيره (3)

تونس مداد من الحبّ لا ينتهي ، مثذنة للخلود روضة الأجيّة القادمين الى حلم
مسكون بالأمل ، الأمانى فيها مستتوات كوجه النور والقيمة الخضراء ، أزكى
وشاتجه المزهرة يا تونس المدلّلة ، يا مبيتى يا سلوتي ... يا درّتي المعيرة ها أنتذا
تزهين شعرا أخاذا بزرکش قصائد البدء المنتهى .

ويتغنّى الميداني بن صالح بتونس في قصيدته الشهيرة مارس وذلك بمناسبة
الاستقلال يقول :

ها هي الحضراء في أرضك عرس
وأناشيد ورقص
وزغاريد وشدو وغناء

وأزاهير على الأرصفة الحضراء عطرا وشذا (4)

تونس وميض لآلى تبتل غيم الخزامى ، تتراءى ملامحها صفاً بخضرة قلبها
المفعم بزغاريد الفرح الوردى ، عطرها اشتباك الحلم بالتكوين سماؤها فقايع
الشمس واندلاع الياسمين تسكن عاشقها وترضع أبناءها المخلصين ثمار حسنها .
فيقول جعفر ماجد :

قد سكنت العيون والأهداب

وأخذت العقول والألباب

يا بلادي وأنت أمة فن

أبدع الله سحرها الخلاب

البلاد ممتدة في سحرها الخلاب يوازرها الهيام الصوفي في سمفونية الجمال
المطل على وجدها الذي أرضعنا لبن الكبرياء ، إنها الوحيدة باتجاه الخلود ،
عذاباتها أغنية تتوجع لتسعدنا ، إنها تلاوين صباح يخفف عبء المساء ، يرسم
تجلياته بتوالد صباحي موغل في الاشرار ...

قد قتلت الحساد حسنا وأمتنا

فاستشاطت نفوسهم إعجابا (5)

الوطن عند ماجد نقاء الرؤيا يقتل الحساد ويحببهم سكارى ، تسجد الأشياء
لحسنه والبلاد نكهة الضياء في عتبات الحسن ، تونس فاتحة الذهول العجيب تتمم
دائرة الإعجاب المتخف في نبض قلوبهم . فنحب البلاد كثيرا . يقول أولاد أحمد :

نحبّ البلاد

كما لا يحبّ البلاد أحد

صباحا

مساء

وقبل الصّباح

وبعد المساء

ويوم الأحد (6)

نحبك تونس أكثر منا فتعلو مئذنة الصّباح إلى منتهى الانشاد ، فينمو نخيل
الخلق من أوردة المرايا وتطلّ الحياة من خلوة الصّباح فيتنسّم المساء ويزهر يوم الأحد
حنينا إلى حبر الوطن ..

حينها يختفي الليل فيؤنسنا النهار الظليل . يقول نورالدّين صمود :

يا بلادي تفتديك الأنفس

أرضنا الحضراء دوما تؤنس

تؤنسنا الحضراء ، قديسة الاقيونات ، راهبة في دير وحيها الخصب يطلّلها
رفيف من فراشات النعاس ، تفتديها أنفس الأجيّة الهائمين عاشقي الوطن .

(3)

في حمى الفصول تلمع تونس في مواويل الوجد عند جميلة الماجري :

أحبك حين يهطل في شوارعك المطر

<http://Archivebebe.Sakhrif.com>

فتعبق بالمواويل الثنايا

وتفتسل المنازل والشجر

وتخضرين في عيني وقلبي

وتفترشين أهداب القمر (7)

تونس الفصول تعبق غناء يطرب الرّيحان له ، فيخضر حبّا ويتقاطر سحرا

ويفترش أهداب القمر ، فتورق حينها نوسولوجيا المكان وحلّ السنّا والسّلام .

يقول الشاذلي زوكار :

... فعات الغروب

وحلّ السنّا والسّلام

ودوت الرّعود

وقد باركتها السّماء

فردّد كلّ الأنام >> حماة الحمى يا حماة الحمى
هلمّوا .. هلمّوا لمجد الزّمن >>

لقد دكّ صرح الطّغاة المقام
على حمحمات الفدا والأحن
... وقد ولد الفجر في موطني . (8)

الصّبح يولد مشعاً في وطني ، يعانقه الاشرار ويخزف خبوطه الحريرة ماء أزرق
والأنام يردّدون أناشيد الحريرة والفجر مظل من السّنا يحمل أحلام الشّعب ويرسم
فاتحة وطن طليق ، فتكتب أعراس الصّباح الشّجي شعرا خالدا تنادى بها نوارس
طلقى كفطرات ندى الدّجى البكر ... إنّها تونس الحب ... تونس الباسمين كما
يقول المشرقي :

أجيء لأروي لديك الغليلا
وأغفو على شاطئك طويلا
أحبّك أغنية لم أقلها
وكونا من السّحر حلوا .. ظليلا
أحبّتك تونس من مهمّتنا نأيت
نحبّك كان لنا سلسيلا (9)

تونس الجميلة أوّل حلم نبوءة ، تنثر فيروزها في قصيدة لا تخون كاهنها لتطلع
من مفردات القصائد حوريات من سندس اللفظ ، يعطرهنّ صباح البلاد ويكتبهنّ
ربيع متفرّد في الحسن وكرنفال من عتيق البهاء ...

خاتمة:

هذه بعض اشعارات الضّوء لتونسنا الجميلة في شعرنا التّونسي الحديث هي
منارة مشعّة على الفرح الأدمي تكتب سحرها وبهاها ومدادها يزحف من نور ليبقى كلّ الحسن
، كلّ الشّعر ، كلّ الحبّ ... لتونس الجميلة .

تونس التّغيير

شمس: الهادي عبد الملك

يا تونس النّضال والطّموح بحنا لك بحبّنا فبوحى

* * *

سلمت يا ساحرة المحيّا الحسن كلّما رآك حيّا
إلى البناء والتّشيد هيّا هبّي إلى إقامة الصّروح
يا تونس النّضال والطّموح

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrat.com>

قرطاجة الروعة والجمال سليانة الشّموخ والمعالي
حقيقة تعلو على الخيال ملحمة بالاعتزاز توحى
يا تونس النّضال والطّموح

* * *

شمس الأمان أشرقت فسيري رافعة ألويّة التّغيير
وعانقي مشارف العصور مزهوّة بوجهك الصّبيح
يا تونس النّضال والطّموح

* * *

من الأعمالق

الأهداء : إلى بطل التغيير الرئيس زين العابدين بن علي
بمناسبة العشرة الأولى للتحويل .

شعر : الحبيب دربال

اليوم نهتف باسمك الغتّان
يحلّو عن الأبصار كلّ ضبابة
لولاء ما احتفل الجميع بعرسهم (2)
هذا ربيعك يا بلادي فاسعدي
خضراء ما فتئ الزّمان يبرّها
لا يرهّب القیظ الشّدید إذا عتّا
ياتي البلاد شمالها وجنوبها
فتمید تونس حرة مسرورة
شهر مجید (1) ما له من ثان
ويظلّ قلبا دائم الخفقان
يا فرحة الانسان بالانسان
انت الحبيبة ، انت كلّ كياني
ويبرّ كلّ مناضل متغان
ويكون حتما فارس الميدان
ياتي سعيدا صادق الوجدان
ويمید هذا الشعب في اطمئنان

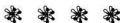
العاشقون إذا أحبوا أخلصوا
هم إخوتي لا أستطيع فراقهم
نظروا إليك فانت شهر خالد
ومضوا إليك فلم تخيب ظنهم
لم تال جهدا مذ خللت بارضنا
بلدي الأمين يطول وصفي كلّما
وترنّحت جدلي طيور مثلها
يدعو لك اللهمّ شعب آمن
والعاشقون خلاصة الأديان
من يستطيع مرارة الحرمان !
قد بوّوك مكانة السّلطان
دمت النّصير إذا اشتكى جاران
طوبى لتونس درّة الأوطان
مادت على كتفي غصون البان
فكانها فيض من الرّحمان
جعل الوفاء خليفة الايمان

وأرى الوجود شجا على أشجان
وأشأنها حربا على الشيطان
القي ربيعا مشرق الآلوان
تقضي على الأوهام والأحزان (4)
أو تقتغي آثار كل جبان
يئد الخراب بمديعة وسان

أو كوكبا يقضي على الأدبان
والحرف عشقي صورة ومعان
شهر يرنّ صداه في الأذان
بوركت شهرا ثابت الأركان
عاشت بلادني قبلة البلدان
إلى الأمام على مدى الأزمان
ضاهي الحديد وقوة البركان
عشق الديار وخدمة الإنسان

من لي بغيرك حين أبدو حائرا
أطوي المسافة لا أهاب وعيدها
الفاك يا أملي (3) تغك طلاسمي
في كل شبر من ترابي فرحة
وتبدد الظلماء وهي رهبة
أو نمتطي في السبق صفوة شاعر

لم ألق رغم البحث نجما واحدا
فجعلت نبراسي حروفا ستة (5)
<< نوفمبر >> كم تستجيب لحقنا
شهر تهيم به البلاد جميعها
ندعوك ربّي تستجب لدعائنا
فالإمام كما نريد ونشتهي
الحزم من شيم الرجال وعزمهم
- لي في محبتهم - دليل قاطع :



-
- 1 - إشارة إلى شهر <<نوفمبر >>
 - 2 - إشارة إلى الاحتفال بالعيدية الأولى للتحوّل.
 - 3 - إشارة إلى الصندوق الوطني للتضامن 26 - 26
 - 4 - إشارة إلى مناطق الظل .
 - 5 - المقصود شهر << نوفمبر >> هذه الكلمة التي تتركّب من ستة حروف .

قَسَمًا لَغَيْرِكَ - لَا نَفْسِي



شعر : السَّعِيدِي المنصوري



هل لغيرك أَلَقْتُ شوقا

ورسمت للطير فضاء ومدى .

وسكنت حَسَى على ربوعك الخضر عبيرا

وسكنت في وردك عطرا وندى .

ونذرت للرحمان عزما / تونس

ولأجلك أنسج مجدا وصدى .

هل لغيرك كان هواي وحنيني

أم لغيرك كان صوابي وجنوني

* ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com> * * * *

*

لماذا كلَّما غَنَيْتُ عشقا لروايك الخصا

غارَت الحسناء ووَجَّهَت العتابا

*

ولماذا حين أهواك تعالى تمر

واختفى الزَّهر . وأمسَت الدنيا يبابا

*

لله يا بلدي الحبيب رَأْفَة

بالدَّمع حين يصبح عَنَابا .

*

هل لغيرك كان هواي وحنيني

أم لغيرك كان صوابي وجنوني .

* * * *

* تونس الغزلان والخلجان والتاريخ شاهد .
 بلد الرِّيحان والبركان وميلاد القصائد
 * ثورة الميزان والإيمان وإقدام السَّواعد .
 جدول الضَّمآن قبلة الحيران وقلعة الصَّامد
 * هل لغيرك كان هواي وحنيني
 * أم لغيرك كان صوابي وجنوني .

* * * *
 * طوبى لنفوك في الصَّحراء راعية
 * لصبرها تخضوض الأعشاب والكلاء
 * شمس لصبحك تهدي الرُّوح قافية
 * للحنها القدسيَّ يشدو الطَّير والملاء
 * طوبى لحيلك في الباحات صاهلة
 * تعطى للوحك حرقاً له تياً .
 * http://Archive هل لغيرك كان هواي وحنيني
 * أم لغيرك كان صوابي وجنوني .

* * * *
 * نفخ الشَّهيد لمجدك أَلحانا
 * تمخَّض بحرك فأعجب المرجانا -
 * صباح الخير يا قمما أنبتت ريحانا -
 * مساء العطر يا سهلا قمحه أحيانا
 * صلاة الحبِّ يا وطني عشقا وعرفانا -
 * هل لغيرك كان هواي وحنيني
 * أم لغيرك كان صوابي وجنوني .

الرَّسْمُ بِالْفَرَحِ عَلَى صَدْرِ الْوَطَنِ

شعر : مختار المومني

* مثلما يحتاج الوطن إلى السَّواعد العاملة ، يحتاج
أيضا إلى الكلمات الجميلة

أرسك بالواو ...

واحة أمن أفزع إليها ولها كلما منسّمت رائحة الغربة وعفن البعد ، والفقد
فتللم فرحتي ، وأززع في إيماءة الحياة من جديد ،
أرسك بالطاء

طيرا يرف مثل السعفة الجذلي ، وجناحه يمتدّان مثل قوس قزح .

أرسك بالثون

نبعا يتدفّق ليقتل جفائي وعطشي وضماً أصابعي .. لا ينضب ولا يقبض
يد العطاء .

أرسك بالتاء ... توقا

وبالواو ... وردة

وبالثون ... نورا

والسين ... سلاما

تونس

حتّى وإن زرعت أرضك وردا فأنبئت شوكا وحسكا ... فأنا أحبك يا وطني

حتى وإن جعت فيك وتشردت فأنا أحبك يا وطني .
فبصماتك لا تزال عالقة على نبضي ونفسي وأحداقي وكفك لا تزال
تهدهدني ، وتعذني بصباح يمتلئ بالفرح الفوضوي الجميل .
فما أحلاك يا وطني وأنا أراك غيمة على ثغر عطشان وكساء على
جسد عريان ومنازة على ساحل الحياة .

* * * *

أخسر البسوح

خضراء

يا عطر القرنفل في المساء

مطر هسي

وكمنجة عزفت شجي نغم

غنته الصبايا في الدجى

فإذا الدنى

حسن ، وأفراح .. غناء <http://Archivebeta.Sakhi.com>

خضراء يا عطر القرنفل في المساء

وجميعة غنى الجميع لحسنها

رفضت

فجاوبها الغناء

وطني أنا طفل تشاركه النجوم غناء ..

وهدير ملحمة

ترددها المطارق

والمعاول

من الصبح ... إلى المساء .

رسالة حبّ إلى تونس



شعر : عادل الهمامي

تجبي المواعيد حتّى نرانا
ربيع من الورد غطى شذانا
ونبقى نناديك كلّ صباح
نحبك تونس أنت مدانا
وأنت الضياء لكلّ العباد
وأنت الحنين قصيدا تفانى
وأنت التي بالفؤاد بقاء
وأنت التي تنسجين خطانا

* * *

أتونس جنناك نمتدّ عشقا
وفينا نقاء وحبّ ينير
وجنناك منك نعلّي الحروف

ونبني القوافي ونبني المسيرُ
فكنت البلاد بلا ضفَّتَيْن
وكنا الحنين اليك يسيرُ
وكنا أهازيج لحن غزير
وكنت الشدَى إذ يحطُّ يعيرُ
وكنت فؤادا يهدد حبًّا
فكنت الزهور وكنت العبيرُ

* * *

أتونس هل فيك بوصلة للمحيين؟ أم فيك ملحمة للمسير ؟
فأنت مسير التفتُّح أنت
وأنت وضوح المدى والمصير
وأنت التي تجمعين تواصل عشق العباد
وأنت المواعيد ما خانك الحدُّ يوما
ولا الامتداد

* * *

أحبك تونس ملء فؤادي
أحبك تونس ملء العمر
فمجدك خطَّ طريق العلوِّ
صداك تمادى كضوء القمر

ربوعك لحن يمدّ الأغاني
جمالك سحر لكل البشر
فأنت مجاديف شوق تعالى
وأنت رياحين لحن الوتر
وزهرك عال وعال وعال
ولو غاب منك رذاذ المطر

* * *

أحبك تونس أنت الوطن
وأنت منارة كل الزمن
ففيك يعيش الفؤاد محباً
وفيك تغيب جميع المحن
فكيف أقيم لغيرك حباً
وحبك يرسى بقلبي سفن ؟
فكيف أغيب عن الورد كيف ؟
وكيف أغيب ؟ وكيف إذن ؟

تونس الأنس

موشح لأحمد بن أبي الضباف

تونس الأنس لها شوقي نما نزهة النفس وروح النفس
أهلها أضحوا نجوما في سما سطعت منهم بعقد أنفس

بلدة طيبة قد جمعت
من وجوه الحسن ما يسبي الأريب
زانت الأرض بها وارتفعت
ولسكانها غدا يعنو الغريب

فضحت شمس الضحى إذا لمعت
من بعيد حين تبدو أو قريب

كم لها من أحور قلبي رمى
بفتور من نبال من قسي
نالت المرمى ولم ينفع حمى
لا حمى من فاتك في الأنفس

يا رعى الله ليالينا بها
 ويدور الكأس يُيديها النديم
 تتهادى في حلى أثوابها
 زانت الألوان من ذلك الأديم
 جاءت اللذات من أبوابها
 هكذا الشأن من العهد القديم
 فاغتنمها وارثفها كلما
 لوئت بالورد خد الأكؤوس
 واتخذها بسرور سلما
 إنما الراح حياة المجلس
 فاسكن الخضرا وخامر خيرها
 واليس الأمن بها والعافيه
 واشكر النعمة واعرف يسرها
 فهي للجاحد حقاً نافية
 وإذا لامست أرضا غيرها
 قلت في شوق لتلك الضافية
 تونس الانس لها شوقي فما
 نزهة النفس وروح النفس
 أهلها أضحوا نجوما في سما
 سطعت منهم بعقد أنفس

نسيم تونس

شعر الباجي المسعودي

حيًا نسيمك حتّى كاد يُحييني
يا تونس الأتس يا خضرا الميادين
سرى عليلا ووفاى بالسّلام إلى
مضنى بحبك نائي الدّار مغبون
فجدّ بي الشّوق واسنولى على جلدي
وصرت أخفيه حتّى كاد يخفيني
وبتّ في حرق والطّرف في أرق
والثّوم أعصيه أحيانا ويعصيني
سقى ربي تونس الحضرنا وساكنهنا
سحب من السّعد تُرضيهم وتُرضيني
ولا أذاقني الرّحمان فرقتها
فبُعدها مُوجب ضعفي وتوهيني
ربع الأمانى وماوى كلّ ذي أدب
ومسكن للمها والخرد العين
منشا شبابي وأترابي ومرضعتي
ثدي السّرور الّذي لا زال يُرويني
قُم يا نديمي نباكر روضها سحرا
فالسّعد نادى بنا من باب سعدون

أهدي الربيع لنا ظرفاً وتكرمة
شميم أنفاسه ضمن الرياحين
أما ترى أعين الأزهار شاخصة
للّهو والأنس والافراح تدعوني
ساعد أخاك الى أريانة فيها
روض توشى بوردي ونسرين
واغنم بها نفس الأزهار مصطبحة
من خمرة عتقت في دير عبدون
ومل لشطرانة عند الغبوق وقف
واشرب بها ما تشا يأتيك في الحين
وجعفر لا ذوت أغصانه وسقت
ثغور أزهاره بنت الزراجين
ظل ظليل وماء كالسلاف على
رجع التواغيب ونات التلاحين
وارتد لنفسك في رواد منزلة
واخلع عذارك فيها خلع مأمون
واحمل الى شاطئ المرسى وقبّتها
خمرا مشعشة من خمر برزون
وواصل القصف وارفل في ملابسه
واترع بها الكأس واشربها واسقيني
وسرح الطرف مرتاحاً ومبتهجاً
في خضرة البحر أو خضر البساتين

مناجاة تونس

شعر : محمد الشاذلي خزينة دار

سلا تونس عني وعنهما سلاتيا
سجنا معا فازداد كل صباة
أعد لنا الحساد بالسجن خلوة
ودارت كزوس الحب بيني وبينها
تنادي انتسب يا شاذلي قلت تونسي
فما كان أحلاها لدينا صباة
فتحت لها صدري وقلت تفضلي
لما الله عزالي عليها أهذه
سأحي لها فكرا وجسما ومهجة
وها هي في قلبي وها هي ها هيا

ولم أنس تسأل الحبيبة لي وقد
تسألني وهي الحبيرة ما الذي
فقلت مدحت الشيخ شعرا مشاركا
وكان سجين الحب قبلي متيما
غرامك عند الحكومة زلة
تدانت لي الحظرا لتصغي جوابيا
أتيت به يا هذا وهل كنت جانيا
بني وطني مذ ألبسوه التهانيا
فقالته لقد أمسيت للشيخ ثانيا
كفا ضررتي الغيرة فقلت كفانيا

* * * *

تونس الجميلة

من ديوان أبي القاسم الشابي

لست أبكي لعسف ليل طويل
إنما عبرتي لخطب ثقيل ،
كلما قام في البلاد خطيب
ألبسوا روحه قميص اضطهاد
أحمدوا صوته الإلهي بالعسف
وتوخّوا طرائق العسف والإر
هكذا المخلصون في كل صوب
غير أنا تناوبتنا الرزايا

أنا يا تونس الجميلة في لجج
شرعتي حبك العميق وإنّي
لست أنصاع للواحي ولو مت
لا أبالي... وإن أريق دمائي
ويطول المدى تريك الليالي
إنّ ذا عصر ظلمة غير أنّي
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن

أغاني الحياة ص 24 . 25

من المتسبب...؟

قصة قصيرة

تأليف : عادل محفوظ



أوشكت الشمس عن المغيب لترسل أشعتها
البنفسجية على أعالي الأشجار القائمة بأحد جبال
ومرتفعات أحد الأرياف الكائنة بجهة الشمال
الغربي من البلاد التونسية فزادت المنطقة
روعة وجمالا فظهرت وكأنها قرصا ذهبيا يتلألأ
في قلب رمال الصحراء القاحلة زيادة على امتياز
حياة البدو عادة بالهدوء التام والسكينة المطلقة .

هناك في إحدى الأركان المنزوية والى سفح الجبل اختار الشيخ علي منذ فجر
الاستقلال أن يكون هذا المكان قبر حياته بأويه البقية الباقية من عمره وهو في
الحقيقة عبارة عن كوخ بسيط محاط بسياج قصير من الاشواك وبعض أجزاء حطام
طائرة من مخلفات الحرب العالمية الثانية وشجيرات من «الهندي» >> أراد منه أن
يكون مريضا لأغنامه وكلبه المدلل وخمارة وسبيلة النقل الوحيدة التي يستعملها تارة
الشيخ علي للذهاب الى المدينة لشراء ما توصيه به الأم عائشة زوجته من الحاجيات
للأزمة : وتورا ابنه عمر لاقتناء بعض الصحف الاسبوعية والمجلات الشهرية إذ
هو يعتبر المتعلم والمثقف الوحيد في تلك الجهة وقد عاشر المدرسة الابتدائية خمس
سنوات وبارح مقاعدها في السنة السادسة والأخيرة وذلك لما خانته الحظ ولم ينل
شهادة «السيزيام» وكان دونه ودون مواصلة طريق العلم فبالرغم من ضعف
درجة تعليمه فهو لا يزال محافظا على نفس زاده الثقافي وربما أكثر وذلك باطلاعه
على كل صفحات وأركان المجلات التي يفتنيها وبالتالي كشف الكثير من العالم
الذي يجله بصفته بقيم بمنطقة ريفية منعزلة تماما زيادة على عدم وجود وسائل
ترفيهية وثقافية عادة في أرياف بلادنا .

نهض علي من نومه منذ الصباح كعادته فوجد الأم عائشة قد أشعلت

<< الطابونة >> وأحضرت الخبز والحليب فطور الصباح : فجلس الى جذع شجرة وهناك على نسمات الريح الصباحية التي تتخللها رائحة الإكليل والزعرور الفواحة مكث فترة عادية ككل صباح لتناول ما لذ وطاب من يدي الأم الحنون ثم أشعل سيجارته الأولى وأخذ منها نفسا طويلا وألقى بدخانها أمامه عالبا وظل يراقبه حتى تبخر وغاب ولا يزال يحدث في الافق البعيد ... يفكر في أشياء وأشياء ... غير عابئ بالنار التي أتت على عقب السجارة وكادت أن تصل إلى أصابعه لولا صوت الأم عائشة تناديه .

- عمر يا عمر مالك يا بني لا تزال على عادتك ككل يوم تظل تراقب السماء ! هل أرسلت صاروخا إلى سطح القمر ولازلت تراقب أخباره كل يوم ...! ما بك ؟ إنني أمك صارحني بما في قلبك يا بني ...!

وكانت المسكينة أن ابنها أصبح يفكر في << ابنة الحلال >> لما لا ؟ وقد بلغ العشرين ، بلغ مرحلة النضج وهي التي تمنى وتدعو الله أن يتمتع بالصحة ولا يحرمها من ذلك اليوم الذي تشاهد فيه فلذة كبدها الوحيد جالسا إلى جانب عروسه في ثوب الزفاف الأبيض وهي تتصول وتحول توزع الكسكسي واللحم للضيوف وتحمل أطباق الشاي ؛ ضاحكة طارة ومزمنة طورا صانحة في الاولاد الصغار وقد عمّ صخبهم وصياحهم أركان البيت ... لما لا ؟ وهي تطلب من الله أن يرزقها بن يؤنس وحدتها في هذا المكان الخالي ؛ ويعينها على تحمل صعوبات الحياة في منطقة ريفية كذلك ؛ وتعود مرة أخرى لتسأله :

- قل لي يا عزيزي ما بك ؟ لا تظن وأن أمك لا تفهم ... إنني عارفة بما يلوج بخيلتك ...! ها .. ها .. لا شك أنك وقعت في غرام إحدى فتيات المدينة فقد كثرت سفراتك هذه الأيام على ظهر ذلك الحمار المسكين الذي أعياه التعب وخارت قواه ، أم أنك أعجبت << بزنوية >> ابنة الحاج الطيب لما زارتنا الاسبوع الفارط من " دواهم " تستعير منا " السداية " وقد لمحتك تراقبها ...؟ غير أنك ربما خجلت مني ومن أبيك بأن تصارحنا لتطلب يدها ... فعلا يا عزيزي إنها ابنة حلال وأبوها رجل طيب و ... و ...

وهنا أفاق عمر من أحلامه على كلمة ابنة حلال وأبوها رجل طيب ... فعرف

وَأَنْ أُمَّهُ كَعَادَتِهَا كَانَتْ تَقْدَحُ لَهُ خَصَائِلَ إِحْدَى بَنَاتِ «الدُّوَكْرِ» فَصَاحَ مَزْمَجِرًا :

- أَرْجُوكَ .. أَرْجُوكَ ... دَعِينِي مِنْ هَذَا الْمَشْرُوعِ الْفَاشِلِ ... فَكَمْ مَوْتَةً قُلْتُ لَكَ أَنْسِي مَوْضُوعَ الزَّوْجِ هَذَا الَّذِي تَكَرَّرْنِي لِي صَبَاحًا مَسَاءً ؛ لَقَدْ أَصْبَحْتُ عَصَبِيًّا جَدًّا لِمَجْرَدِ سَمَاعِكَ أَنْتِ تَعِيدِينَ عَلَيَّ مَسْمَعِي هَذَا الْمَوْشِجَ الْمَلِّ ... فَبِاللَّهِ عَلَيْكَ يَا أُمَّاهُ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ تَرِيدِينَ أَنْ أَتَزَوَّجَ ؟... بِأَيِّ طَرِيقَةٍ سَأَقْدِمُ نَفْسِي لَهَا وَلَأَهْلِهَا ؟... بِأَيِّ مَنْطِقٍ سَأَعِيشُ وَأُجَابِهِ مَعْتَرِكِ الْحَيَاةِ الْقَاصِي ... بِأَيِّ سِلَاحٍ سَأَقَاوِمُ وَأَتَحَدَّى هَذَا الْمَنَافِسَ الصَّعْبَ الْمَرَّاسِ ... ؟ هَذَا الْغَوْلُ ... ! هَذَا الْمَتَوَحَّشُ ... ! أَلَا وَهُوَ الْقَرْنُ الْوَاحِدُ وَالْعِشْرِينَ إِنَّهُ قَادِمُ الْيَنَّا وَهَاجِمُ عَلَيْنَا ... مَكْشَرًا عَنْ أَنْيَابِهِ لِيَلْتَهُمْ وَيَفْتَرَسَ كُلٌّ مِنْ حَكَمَتِ عَلَيْهِ أَقْدَارُ رَيْنَا بِالْفَقْرِ وَالْجَهْلِ مِثْلَنَا ... بَلْ مِثْلِي أَنَا وَالَّذِينَ هُمْ فِي سَنِّي ... ! أَمَّا أُمَّالِكُمْ أَنْتِ وَأَبِي فَقَدْ أَنْهَيْتُمْ مَشْوَارَ الْحَيَاةِ بِحُلُوهِ وَمَرَّةً فِي غَفْلَةِ الزَّمَنِ سَنَوَاتِ الْعُصُورِ الْمُظْلَمَةِ ... ! أَرْجُوكَ دَعِينِي يَا أُمَّاهُ إِنِّي أَكَادُ أَنْفَجِرَ ... أَرْجُوكَ بِأَيِّ مِهْنَةٍ أَوْ أَيْ وَظِيفَةٍ أَوْ دَخَلَ سَأُصَارِعُ الْحَيَاةَ الزَّوْجِيَّةَ الصَّعْبَةَ ... ؟ بِذَاكَ الْعَمَلِ الْمُحْتَرَمِ وَالْمَرْكَزِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْهَامِ أَلَا وَهُوَ رِعْيُ الْأَغْنَامِ ... ! بَتِلْكَ السَّيْرَةِ الْعُصْرَةِ مِنْ آخِرِ صَبْحَةٍ أَلَا وَهِيَ حِبَارِكُمُ الْمَلْعُونِ ... ! أَوْ بِهِذِهِ " الْفِيلَا " الْفَخْمَةَ الْمُطَّلَّةَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ . قَالَ ذَلِكَ بِسُخْرِيَّةٍ مُشِيرًا إِلَى كَوخِهِمُ الْحَقِيرِ ... أَرْجُوكَ دَعِينِي هَادِنًا وَلَا تَسْأَتْرِكُنَّاهَا لَكُمْ وَسَأُرْحَلُ لِلْأَبَدِ لَقَدْ سَمِعْتُ عِيشَ الْأَثَمِ وَكَرِهْتُ كُلَّ الدُّنْيَا ... ! كَرِهْتُ هَذَا الْعَالَمَ الْمَادِّيَّ الَّذِي طَغَى فِيهِ الْحَدِيدُ وَالنَّارُ وَالذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالظُّلْمُ وَالْقَهْرُ وَالْاضْطِهَادُ عَلَى الْعَدْلِ وَالْمَسَاوَةِ وَالْقَنَاعَةِ وَالْحُبِّ وَالسَّعَادَةِ ... ! لَا شَيْءَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا سِوَى الْمَادَّةِ ... الْمَادَّةِ ... الْمَادَّةِ .. وَهِيَ الَّتِي مِنْهَا سَوْفَ تَكُونُ بَدَايَتِي كَانَسَانِ حَقِيقَتِي قَادِرٌ عَلَى فِرَاضِ وَجُودِي أَيْنَمَا كُنْتُ ... !

فَتَعَجَّبَتِ الْأُمُّ عَائِشَةُ لِكَلَامِهِ وَدَارَتْ إِلَى الْوَرَاءِ غَيْرَ عَابِتَةٍ بِمَا يَقُولُ وَلِسَانُ حَالِهَا يَرْدَدُ وَيَعْبِيدُ سَوْفَ نَرَى هَذِهِ الْمَادَّةَ أَوْ الطَّائِلَةَ الَّتِي تَحْكُمُ عَنْهَا أَيْنَا الشُّبَابُ الطَّائِشُونَ وَذَهَبَتْ وَهِيَ تَدْعُو لَهُ بِالْهَدَايَةِ ... لَتَعُودَ إِلَيْهِ بَعْدَ لِحْظَاتٍ بَيِّدَهَا قَفَّةُ الْفُطُورِ وَبِالْآخَرَى " بَرَكَاد " شَايَ صَائِحَةٍ فِي وَجْهِهِ :

- خُذْ وَالْحَقُّ بِالْفُطُورِ لَوَالِدِكَ فَقَدْ أَغْيَاهُ التَّعَبُ مِنْ أَجْلِكَ يَا مَنْ تَبَحُّثُ عَنِ الْمَادَّةِ ...

فهمَ عمر بالذهاب مطأطئ الرأس غير أنها نادته ثانية صائحة أكثر هذه المرة :
- ارجع وامط الحمار يا " حمار " كي تصل بسرعة ...

ذهب راكباً حماره بين التلال والأودية يردّد المواصل البدوية بأعلى صوته بيد يحمل
قفّة الفطور وقد رصفتها وصنفتها الأم عانشة وبالأخرى " براك " شاي لا يعرف
سرّه إلا الشيخ علي وقد أطلّ عمر على فوهته فظهر له أسود اللون كالقطران ...
كان الحمار يسير تارة سيرا عادياً وطورا يحيد عن الطريق ناهقا إذ هو ملح أتان
ترعى على مقربة منه ممّا أجبر إحدى الأرناب البرية أن تقفز راكضة من مريضها
الأمّن منزعة لارتفاع صوت نهيقه ومرّت أمامه بسرعة البرق تسابق الريح ليظهر
لها فجأة في الاتجاه المعاكس " سلوقي " العم جابر الصياد هذا الأخير الذي كان
في استعداد تامّ موجّهاً بتدقيته نحو فريسته ضاحكا مستهزئا بها : ها .. ها ..
ها .. أنا وسلاحي والسلوقي أمامك وحماره وراءك فأين المفرّ ... ؟ ومن الرمية
الاولى أرداها تتخيّط في دمايتها فسارع " السلوقي " بتقدّمها الى سيده الذي ألقى
بها في جرابه وواصل سيره باحثا عن فريسة أخرى سهلة المراس ...

رفع علي رأسه الى السماء بعد متابعتها لما جرى وقال مخاطبا نفسه : ألم أقل
لك يا أمي " إنّه عالم الحديد والنار " ... ١٩١٠

إلى ظلّ إحدى الصخور العالية إتّكأ الشيخ علي يراقب أغنامه وهي ترعى
مستقلّة هنا وهناك ممّا منّت عليها الطبيعة به وقد قست هذه المرة وذلك راجع
للجفاف الذي اجتاحت البلاد هذه السّنة زيادة على زحف الجراد الذي أتى على كلّ
عود ولكون الشيخ علي شبه فلاح صغير لم يسعفه الحظّ في الحصول على
الاعانات الحكومية أوّلًا لأنّه على خصام دائم مع عمدة القرية وهذا الأخير هو
المكلف الوحيد برصد قائمات في صفار الفلاحين لتمكينهم من القروض اللاّزمة
وتدوين مطالبهم وتحويلها الى المصالح المعنية : وطبعا مطلب الشيخ علي سوف لن
يتجاوز مكتب العمدة ليلقي به في سلّة المهملات لأنّ الشيخ علي لا تسمح له
كرامته على غرار ما يقوم به زملاؤه الفلاحون بأن يذهب خصيصا لزيارة العمدة
بمنزله قبل رصد القائمة بيوم أو يومين وهو محمّل بالبيض والسّمّن وفراخ الدجاج
لأنّه رجل تقيّ يقوم بفرائضه الدنيّة على أحسن وجه ويعرف أنّ الرأشي والمرثشي

في النَّارِ وَأَنْ الْغَنَاءَ والفقر بيد الله عزَّ وجلَّ ، لذا فهو يرغب في الحصول على حَقِّه وفق التَّراتيب القانونيَّة المعمول بها ودون مساعدة أيَّ كان ، ولكن أين القانون الَّذي سوف ينصفه ... ؟ ولمن سيشتكي ؟ خاصَّة في الظُّرف القاسي الَّذي تمرَّ به البلاد في أوَّل سنوات السَّمانينات هذه ؟ وهو ينزوله إلى المدينة يصغي يوميًّا إلى حديث ووشوشة الصَّغار والكبار والشيوخ والمثقفين والطلبة وعامَّة النَّاس في المقاهي والدكاكين والسَّاحات ؟ وهم الَّذين لا حديث ولا مناقشة لهم إلَّا عن أسرار قصر حاكم البلاد وحاشيته وما يدور هناك من حقد وأغراض شخصيَّة واستيلاء على أموال الشَّعب وتكالِب على الحكم و .. و ... فكان في كلِّ مرَّة يرفع رأسه إلى السَّماء داعيًا :

- يا ربِّي أتقدِّر الخير ... يا ربِّي تسر ...

ثانيًا حتَّى وإن حصل على إعانة أو قرض ففي هذه الحالة سوف يكون مقداره تافه وهو يذكر جيِّدًا السَّنة الفارطة لما زارته مرشدة اجتماعيَّة إلى الدُّوَّار وقد ذبح لها ولمرافقيها أعزَّ ما لديه من الخرفان طنًا منه أنَّهم سينشلونه من حالة الفقر الَّتِي هو فيها ويذكر جيِّدًا أنَّهم بعد أن أتوا على كلِّ الحروف وأخذوا ما أحضرته لهم زوجته عائشة من سمن وعسل وبيض ودجاج ، اقتربت منه المرشدة وهمست في أذنه قبل أن تناوله الميكروفون للتحدُّث مباشرة على أمواج الاذاعة قائلة :

- اسمع يا عمَّ الحاج ... ! "وهو متيقِّن من نفسه أنَّه ما زال لم يحجَّ بعد " امسك جيِّدًا واقرب فمك هنا مشيرة إلى جهاز التَّسجيل واشكر كلَّ مسؤول في الحكومة على هذه اللَّفَّة الكريمة إلى الشَّعب وتحدَّث عن الحالة الاجتماعيَّة الَّتِي أنت عليها في خير وعدد الإعانات الَّتِي وفَّرتها لك الدَّولة ... !

ففعل ما أرادت وما أمرته به ونادى المسكين بأعلى صوته وبكلِّ براءة : لقد منحتني التَّمنية الرِّيفيَّة قطيعًا من الاغنام وبقرة حلوبًا ومحركًا لاستخراج مباح الآبار فأشكر كلَّ المسؤولين في الحكومة وعلى رأسهم المحاكم الأوَّل الأخير . وجاوبته زوجته عائشة يزغردة قويَّة بعد أن كاد أحد مرافقي المرشدة أن يلوج اصبعه بين ضلوعها كهمسة منه لها حتَّى ترفع صوتها كي تبلغ زغردتها مسامع كلِّ الشُّعوب الملتقطة لأمواج الاذاعة القوميَّة مبدية رضاها وابتهاجها وفرحها بما ستتمتَّع به وفي

آخر الأمر ناولوهم "سداية" كانوا قد جلبوها معهم على متن سيارة "الاندروفار" الادارية التي رجعت الى المدينة محملة بالدجاج والبيض وأكياس الفول والحمص وصناديق الهندي من أهالي الرّيف الكرماء ...!!

وقبل أن يدبر السائق محرك السيارة هرولت الأم عائشة صوبهم وهمست للمرشدة التي انكبّت تمضي بعض الوثائق وتمزق البعض الآخر :

- سيّدتى الكريمة أين إذن الأغنام وبقية الاعانة ؟

فأجابتها المرشدة دون أن ترفع رأسها عن إمضاء الوثائق وغير عابئة بسؤالها المهرج قائلة لها بسخرية واحتقار :

- أووه ... ما أكثركم غباوة و " تقويعر " يا أهل الرّيف هل هذه السيارة الصّغيرة قادرة على حمل قطع من الأغنام والأبقار كلّ هذه المسافة يا عزوزة ...! ؟ ! قليل من الصبر وسوف يصلكم نصيبكم في بحر هذا الاسبوع هل اطمأنت الآن ... ؟
فاحمرّ وجهها خجلا وظنّت المسكينة أنّها أخرجت المرشدة أو لم تثق بها وعادت لتعتذر لها ثانية :

- أرجوك سيّدتى المحترمة أعذرتني فأنا لم أقصد شيئا بل أردت فقط أن أتأكد متى ستصلنا هذه الاعانة حتى أذبح خروفا فرحا وابتهاجا وأقنّى أن تكوني أنت وزملائك سيّدتى في الموعد ... و .. فقاطعتها المرشدة :

- طبعاً .. طبعاً .. بإمكانك أن تبتدئي في رعي السكّين من الآن واعتبري الشّياه عندك في " الزّريبة " ...!

فراحت الأم عائشة تدعو لها بالخير وهمّت لإضافة زغرودة أخرى غير أن مرافق المرشدة كالعادة همس ولكن هذه المرّة قائلاً لها :

- لا .. لا .. لا فائدة الآن لا تتعبى نفسك فليس هناك ميكروفون والبرنامج قد انتهى . فانفجرت المجموعة بالضحك مقهقهين عالياً وقد انطلقت بهم السيارة تاركة وراءها دخان المحروقات الأسود وغبار العجلات ليعمّ " برنس الشّيوخ علي " وملهية " زوجته ببخار " المازوط " الحارق ليبقوا فترة من الزّمن قابعين في مكانهما يسعلان من جرأه الرّاكحة الكريهة ... وظلّ الشّيوخ علي منذ ذلك اليوم يراقب الطّريق عساه يرى الأغنام والأبقار قادمة اليه ...

ولكن مرّ اليوم الأوّل والثاني ... والشهر الأوّل والثاني ... والعام الأوّل

والثاني ... وهو لا يزال ينتظر إلى حدّ كتابة هذه الأسطر ...؟! ...

وبينما هو كذلك تائها في أفكاره بلغ مسمعه مناد من أعلى قمّة الجبل
فنهض مذعورا من مكانه ملتفتا صوب صدى الصّوت فإذا به جاره الحاج الطيّب
يبلغه أنّ حارس الغابات اقتاد له أربعة شياه من أغنامه الى المستودع البلدي
بعد أن عثر عليها ترعى داخل الأراضي الحكوميّة ... فالتفت الى السّماء رافعا
يده لاعنا المرشدة الاجتماعيّة التي ألهاه التّفكير فيها حتّى سهى عن مراقبة أغنامه
وحصل ما حصل . وظلّ متندّما يلعن حظّ هذا اليوم حتّى باغته ابنه عمر قادما
بالفطور على ظهر الحمار وقد سمع الحاج الطيّب وهو يعلم أباه بما حصل ؛ فاقترّب
منه قائلا :

- صباح الخير يا أبي ... فردّ عليه بغضب :

- من أين لي بهذا الخير ... قالها ثمّ التفت الى السّماء مستغفرا ومقتنعا
بالقضاء والقدر .. ودار صوب ابنه :

- هياّ انزل ناولني الحمار وابقى هنا احرس الأغنام حتّى أذهب الى البلدية لدفع "
إعانة " الى دولتنا المسكينّة الفقيرة كي اتّسلم أغنامي المحجوزة ..! قال ذلك ساخرا
ويعني بها دفع غرامة ماليّة فدبة للحكومة فيما أكلته أغنامه من حشائش منّ بها
الله على كلّ دابة تسير على أرضه !

فرفع رأسه مرّة أخرى إلى السّماء داعيا بلهجة غاضبة :

- منهم لله " لا رحموا ولا خلّوا رحمة ربّي تهبط " وامطى حماره وانصرف ...

طأطأ عمر رأسه متأنّفا وقد فهم قصد أبيه في أنّ الحكومة لا تستغلّ أراضيها ولا
تسمح للفلاحين باستغلالها فهي هكذا تظلّ على مرّ السّنين تخضّر وتيبس ثمّ تخضّر
وتيبس وبيع لمن تطأ قدمه أديمها وتدوس حشيشها نعجة من نعجات أو بقرة من
بقرات الرّعاة المتبطّلين ...

إلى واجهة بناية شامخة وسط المدينة وقف الشّيخ علي سائلا أحد المارة :

- أهاته البلديّة يا بني ..؟

- نعم يا حاج أدخل وستجد " الشاوش " على أوّل مكتب بعد اجتياز الباب الرئيسي ...

سار بإشارة الشاب حتّى أشرف على قاعة فسيحة وبأحد زواياها انكبّ أحد الموظفين بشغف كبير على مطالعة ما هو ملقى أمامه على المكتب ، فبادر الشيخ علي بالتحية ..

- السّلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ...

ولكنّ الموظف لم يعر كلامه اهتماما بل لم يحسنّ حتّى بدخوله وقد رفع رأسه عابس الوجه مشدوها محدّقا في عيني الشيخ علي وكأنّه على معرفة به وهو يتمتم بكلمات غريبة لم يفهم الشيخ معناها ...

- عاصمة عربيّة تتكوّن من أربعة حروف .. ؟! دوحة .. لا .. لا ..

وفجأة صاح بقوة فانزعج الشيخ أمامه ...

- آه لقد وجدتها دمشق ...!

وسارع برفع سماعة الهاتف ليعلم زميله الموظف بمكتب آخر بأنّه وجد الحلّ ... كان الشيخ على يتابع السيناريو باستغراب وتعجّب مخاطبا نفسه مازحا :

- كنت أظنّ أنّي أت الى البلديّة ولكن يظهر وأنّي دخلت سهوا الى مقرّ وزارة الخارجية أو إحدى السفارات بما أنّ موظفنا العزيز كان يتحدث عن دمشق وعاد يراقبه .. لا .. أبدا ... مستحيل ... أن يكون هذا هو " الشاوش " ..!

فالشّاوش عادة ليس له أيّ اتّصالات هاتفية بعواصم الدّول العربيّة ...؟! وصاحبنا هذا قد استنجدت به العاصمة السّوريّة دمشق منذ قليل ؛ وإكراما من الشيخ حتّى يلهيه على حلّ هذه القضية الدّوليّة .. عدلّ عمامته وهمّ بالانصراف متأفّفا من فرط الصّدمة قاصدا مكتبا آخر بحثا عن " الشاوش " ... وفجأة صاح الموظف بأعلى صوته :

- يا .. يا هذا .. أين ذاهب ..؟ ومن أنت ..؟ وماذا تريد ..؟ ومن أذن لك بالدخول ..؟

فالتفت المسكين مذعورا مرتعش المفاصل من فرط الانزعاج ولم يعرف ماذا يقول وتقم بصوت خافت صوت المذنب المغلوب على أمره :

- اسمح لي يا بني .. إنني كنت ... فقاطعه الموظف بغضب :

- لا تنطق بكلمة واحدة .. وتعالى الى هنا ...

وبحركة عصبية قام وقد ظهرت أزرار سترته لامعة كلمعان عينيه التي تنظاير منها الشرر وتقدم من الشيخ متبخترا كالذيكم الرومي ماسكا إياه بالسبابة والابهام من أعلى كتفه صانحا في وجهه :

- هل كنت تحسبني تمثال أم ماذا .. كيف تحتازني دون الاستظهار بما يشيت هويتك وأصلك وفصلك ... ؟ إنني الحاجب هنا ...! الحاجب وما أدراك ما الحاجب في أي مؤسسة أو إدارة ... إنني " الفائق الناطق " ان قلت أن المدير موجود فيعني أنه موجود وإن قلت أن المدير غير موجود فهو غير موجود حتى وإن كان موجودا ... ! أفهمت الآن من هو الحاجب ؟ فأجابه الشيخ بخوف :

- نعم يا بني لقد فهمت .. وهو متأكد بينه وبين نفسه أنه لم يفهم شيئا من الموجود وغير الموجود ...!! فرد الحاجب دانما بغضب وتكبر :

- فكيف تتحرر ولا تحسب لي أي حساب ...؟! فوالله عيب ... عيب عليك فلو لم تكن شيخا طاعنا في السن لكنت اتخذت معك إجراء ات أخرى أشد ...
بقي الشيخ مستعرا في مكانه وقد حزت في نفسه عبارات الاهانة وهو الذي لم يتعود سماع هذه الالفاظ طيلة حياته وأجاب الموظف بكل براءة ودون قصد :

- سامحني يا حضرة الحاجب إنني والله لم أتعمد استفزازك لأنني كنت منهمكا في البحث عن ذلك " الشاوش " الكلب ... ؟! الاحمق اللعين ... ؟ لعنة الله عليه
! ؟! ...

طال انتظار عمر وهو لا يزال متكئا إلى جذع شجرة صنوبر محتما بظلها طول النهار من لفع الحر يراقب الاغنام ويرقب عودة أبيه من البلدية ولكن هبهاات سرعان ما جن الليل وعم ظلامه الكون وتأكد من عدم لحاق والده به عندئذ قفز قائما من مكانه وأدخل يده بين طيات ملابسه وأخرج جرابا جلديا صغيرا واستل من داخله أثمن هدية ورثها أباه عن جدّه وما كادت شفتاه تلامس الناي حتى انسابت ألحان ونغمات رقيقة عذبة تشق سكون الليل فاستجابت الأغنام لندائه واصطفّت الواحدة تلو الأخرى متبعة طريق العودة تعبر التلال والادوية وكان عمر تارة يسير

إلى جانب القطيع وتارة خلفه مردداً المواويل البدوية وطورا يحيد عن الطريق ويظلّ يبحث بين أكداش الحجارة والحشائش عن قنفذ أو يربوع فكم من ليلة مقمرة يعثر على فريسته ويعود بها الى الكوخ فتضطرّ الأمّ عائشة لإعادة طهي العشاء من جديد ... فجأة انقطع عمر عن ترديد المواويل وهو يتابع قطع الاغنام المنتظمة المصفقة كقوافل الجيش التي تؤدّي إحدى الاستعراضات ولا يزال هذا المشهد يحزّ في نفسه إذ في كلّ مرّة يذكره بالواجب الوطني الذي تمنى أن يؤدّيه بكلّ شرف وإخلاص وكان في كلّ مرّة يرفع يده الى السّماء متنهّدا داعيا :

- سامحك الله يا أبي ... ؟ لماذا حرمتني .. ؟

إنّ الشّيخ علي على حقّ فهو وحيد وليس له أيّ أنيس أو معين غير إبنه عمر لذا فقد منعه عدّة مرّات من تقديم نفسه للجنديّة ولكن عمر كان عنيدا ولم يجد الكلام معه نفعا ممّا أجبر الشّيخ علي أن يتقدّم بمطلب إعفاء حفيه الى وزارة الدّفاع وبما أنّه الابن والعائل الوحيد لوالده فقد قوبل مطلبه بالايجاب وعاد الشّيخ علي محمّلا بشهادة الاعفاء حامدا الله على هذه النعمة واستبشرت الأمّ عائشة بالخبر السار ورفعت زعفرانة طويلة عمّ صداها كلّ أنحاء " الدوّار " الذي هرع سكّانه لاستجلاء الخبر ؟ ولكن لما عاد عمر في ذلك اليوم من رعي الأغنام وعلم بالخبر ثارت ثائرتة وصاح لأول مرّة في حياته بصوت مرتفع في وجه والده :

- هداك الله يا أبي .. ! فعلت كلّ هذا من ورائي ودون استشارتي ... ؟ حرام عليك .. لماذا حرمتني من قضاء واجبي .. ؟ هل تشكّ في رجولتي .. ؟ أم أنّك تظنّ وأنّ حسنا ابن الحاج الطيّب جارنا أشجع منّي فهذا أنّه أنهى واجبه وهو بخير ... فأجابه الشّيخ علي بكلّ لطف :

- يا بني إنّني والدك وأدرى منك وقد ذقت الأمرين في الدّنيا لأجعلك أنت تعيش في مأسا من الزّمن القادر إنك ابني الوحيد وتريدني أن أسلمك لهم بكلّ هذه السّهولة .. !

- من هم هؤلاء الذين سوف تسلّمني لهم يا أبي .. ؟ فهذا واجب وحقّ على أمام الله وأمام القانون .. أنسيّت أنّ حبّ الوطن من الايمان يا أبي ... ؟

- أعرف ذلك يا بني وكم شهيد ضحّى بالنفس والنّفيس من أجل هذا الوطن

الغالي ومن أجلنا نحن ...

- إذا ما دمت عارفاً وأتينا عشنا بتضحية الآخرين فلماذا تمنعني من التضحية لأجل الآخرين وهم جيلنا الصاعد من أحفادك وأحفاد أحفادك وكل أبناء الوطن ...

- نعم هذا صحيح ... ولكنني أخاف عليك ... إنك يا بني لا تعرف ما معنى فلذة الكبد سوف تتزوج وتنجب أطفالاً بحول الله وقتها ستعرف ما نعانيه نحن الوالدين - استغفر الله يا أبي هل أنا مجاهلت لا سامح الله فضلكما عليّ ... ولكنني أردت معرفة سبب خوفك عليّ من أداء واجبي العسكري ...

- يا غيبي إن البلد على فوهة بركان هذه السنوات ... أحزاب معارضة .. مظاهرات ... أعمال عنف ... الخ . ثم زيادة عن الاضطرابات في معظم دول العالم وخاصة الدول العربية المحتلة أراضيها فتصور مثلاً لو اتحد العرب يوماً وجمعوا جيوشهم لتحرير أراضيها فبالطبع سوف تكون وقتها جندياً ضمن الفرق المرسلة هناك ... وسوف تدخل ساحة الميدان .. فقاطعه عمر :

- لا .. لا .. اطمئن يا أبي أنسيت وأنّ العرب اتفقوا على أن لا يتفقوا ...

قال ذلك عمر وقد ملّ مناقشة أبيه وإقناعه فغادر الكوخ غاضباً وقضى تلك الليلة نائماً الى جانب الأغنام في الزريبة ؛ وهو مفتتح بينه وبين نفسه بأنّ تأسفه على عدم أداء واجبه العسكري لم يكن حباً للوطن وتضحيته من أجله .. و .. كما زعم بل كان همّه الوحيد تلك الأيام الحلوة التي كان من المفروض أن يتمتع بها في الجندية مع زملاء وأصدقاء جدد هذه الأيام التي كانت ستبعده عن رعي الأغنام ، عن الروتين المملّ ... ويزداد ألماً كلما تذكر حسناً ابن الحاج الطيّب الذي تمتّع بأيام شبابه على عكسه هو فكلما جاء ببذلته العسكرية مسترخياً من الثكنة لزيارة أهله إلا وسلك طريق " الدوائر " المعهود ماراً بعمر وهو يرعى الأغنام ليقصّ عليه مغامراته العسكرية ، كالرمي بالسلاح وزيارة عدّة مدن داخل البلاد على متن الشاحنات العسكرية المحضراء ، والتزول من المروحيات بالمظلات إذ هو يركب الطائرة ويراهها لأول مرة في حياته كما كان يعلمه المشية العسكرية وأداء التحيّة . ومما عجب عمر لسماعه لما أخبره حسن بأنّ وحدات الجيش الوطني أصبحت تظمّ في صفوفها أفراداً من الجنس اللطيف وكان ذات مرة طلب حسن رخصة فرفض مطلبه

وذلك نظرا لحالة الطوارئ التي كانت عليها البلاد في ذلك الوقت فما كان منه إلا أن غادر الشُّكنة بدون إذن لحضور حفل زفاف أخته وبعد عودته بيومين عوقب من طرف الوكيله خميسه بشمانية أيام توقيف شديد من أجل الغياب غير الشرعي والفرار من الجندية... فضحك عمر قائلا :

- لو كنت مكانك لشكوتها لزوجها !..

إلى إحدى أركان الكوخ إتكأ الشيخ علي يترشف كأس شاي من يدي الأم عائشة الجالسة قبالة تصغي اليه وهو يروي ما حدث بينه وبين " الشَّوش " هذا الصَّباح في البلديَّة وفجأة قطع الزَّوجان حديثهما وركَّزا سماعهما خارج البيت حيث علا صباح الحرفان وقفزها داخل الزَّريبة فرحة بقدم أمهاتها بعد أن اشتَّمت رائحتها قبل وصولها بعدة أميال . قفزت الأم عائشة من مكانها بعد أن أخذت سطلا كبيرا بيدها وأسَّرت بغلق باب الزَّريبة ليكون حاجزا بين الحرفان وبين أمهاتها حتَّى تتمكَّن من حلبها الواحدة تلو الأخرى ...

وصل قطيع الأغنام تقدِّمه الشَّياه المرضعة واكضه فرحة مرحة بهزَّها الشَّوق لاحتضان خرفانها التي قد أخذ منها الجوع مأخذة فراحت كلَّ نعجة تدفع الأخرى بكلِّ قواها حتَّى تتمكَّن هي الأولى من ملاقة رضيعها . فعمَّ الضَّجيج كلَّ المكان وتعالى صباح الأغنام وركبضها لتبعثر وتدفع بين سيقانها بعض أواني الأم عائشة المنتشرة هنا وهناك فأفاقت الدَّجاجات مذعورة من قنَّها متطاير ريشها متعال صياحها فكانت فرصة الكلب لينقضَّ على الديك الذي كان يزعجه من سباته كلَّ فجر بصياحه المتكرَّر وبوصول عمر على ظهر حماره أضاف هذا الأخير نهيقه ليزيد في بلبله الوضع وتعكير صفو النِّظام العام داخل الزَّريبة ... فيخرج الشيخ علي من الغرفة ويعطي أوامره لوقف هذه الحرب فأوكل مهمَّة صدَّ الباب إلى ابنه عمر وراح هو يمسك الشاة تلو الأخرى حتَّى تتمكَّن الأم عائشة من حلبها ... وما هي إلا برهة من الزَّمن حتَّى عاد الهدوء الى المكان الذي استتبَّه الأمان والاستقرار .

التقت العائلة حول مائدة العشاء وبعد أن أكلت ما لذَّ وطاب وجاء وقت السَّمر

قامت الأم عائشة ورفعت المائدة ثم أوصلتها الى المطبخ وعادت إلى حيث صندوق موضوع بأحد زوايا الغرفة وهو عبارة عن خزانة لحفظ ملابس العائلة حيث جذبت من داخله صرةً ومرتأة صغيرة ووضعت الكلّ تحت إبطها محاولة إخفاء ذلك عن عمر واتجهت صوب المطبخ قبل أن تلقي بابتسامة تجاه زوجها الذي ردّ بمثلها خلسة ، أثناء ذلك كان عمر منهمكا في قراءة ورقة صحيفة كانت ملفوفة بها حبات كاكاو جلبها الشيخ علي معه هذا اليوم إثر زيارته المدينة .

- عائشة ... يا عائشة ...

الشيخ علي ينادي زوجته التي طال مكوثها في المطبخ

- نعم يا سي علي ...

- أين الشاي يا امرأة ؟..

- لحظة ويكون جاهزا ... انتظر قليلا ...

وما هي إلا دقائق معدودات حتى قدمت الأم عائشة تتبختر ويدها طبق الشاي . رفع عمر رأسه ماداً يده لتناول كأسه فاندesh فجأة واستغرب لمظهر أمه بعد أن لاحظ هذا التغيير المبالغ في هندامها فمنذ قليل كانت ترتدي لباسها المعهود فما هو سرّ تعويضه " بالملية " البرتقالي التي من عادة أمه ارتداؤها في الأعراس والمناسبات السعيدة . تأمل ملياً في عيني أمه اللتان انعكس فيهما ضوء القنديل الخافت وقد أضافت لهما الأم عائشة قليلا من " الكحل " فظهرت بركاتين لتعطي نموذجا لجمال المرأة الرفيعة . انحنى الأم عائشة صوب ابنها ويدها الطبق لتسلمه كأسه فتدحرج من بين طيات ثيابها عقدا ذهبيا كان أهدها لها الشيخ علي إثر بيع محصول صابة السنة الفارطة فبرغم حبها لهذا العقد وتعلقها به فقد وعدت عمر بأن تهديه له ليعين به نفسه على مصاريف الزواج إن هو قرّر ذلك ... تناول عمر كأسه وهو لا يزال مستغربا لهذا المشهد وراح يراجع نفسه لعلّ هناك أحد الأعراس " بالذكار " وفجأة نهض الشيخ علي وطلب من زوجته أن تناوله المرأة وأحضر " معاون الحلاقة " عندئذ تتم عمر وطأ رأسه ...!! فتأفف وقام من مكانه ارتدى " قشايته " وأخذ فانوس اليد وهمّ بالخروج ... فبادرت بسؤاله الأم عائشة :
- إلى أين في هذا الوقت المتأخر من الليل ؟..

- سأزور حسن ابن الحاج الطيّب لأمر هام يا أمّاه ...

ابتسم عمر وهو يغادر البيت إذ أنّه ليس من عادة الأمّ عائشة أن توافق على خروجه في الليل بهذه السهولة ولكن للضرورة أحكام ... وهو لا يزال يذكر في عديد المرات السابقة لما ينتابه الأرق بسبب القيظ الشديد فيفيق في عزّ الليل على همسها ووشوشتها فيتظاهر بالسعال والتأوّه ...!! فيضطرّ الشّيخ علي للتخير بقوة حتّى يوهّم ابنه أنّه يغطّ في نوم عميق منذ وقت طويل ...! فيتأفّف عمر ويلعن البقر الذي أجبر ابن العشرين ربيعاً أن ينام مكرهاً في نفس الغرفة مع والديه ...

ملّ عمر عيشته هذه وكره وضعه العائلي وقرّر حسم الموقف في الأوّل كان خروجه من البيت في هذا الوقت المتأخّر من الليل مكرهاً ومرغماً ولكن بعد اتّخاذ قراره أصبح بدافع معنوي أقوى فسارع بالاتّصال بصديقه حسن الابن المدلّل للحاج الطيّب الابن الوحيد صاحب السيّارة "الباشي 404" التي اشتراها له والده بعد أن أنهى واجبه العسكري ليعينه على نقل محصوله الفلاحي إلى ديوان الحبوب وجرّ أكياس العلف من المدينة وعدّة أعمال فلاحية أخرى ...

أفاق الشّيخ علي باكراً وبعد أن توضّأ وصلى صلاة الفجر ذهب ليوظ زوجته :

- عائشة ... يا عائشة أفيقي فقد خان وقت صلاة الصّبح ..

نهضت الأم عائشة مذعورة :

- استغفر الله العظيم !.. استغفر الله !.. يا ساتر يا ربّ اللهمّ اجعله خيراً ...!

- بسم الله الرّحمان الرّحيم ... ما بك يا امرأة ؟ يخاطبها الشّيخ علي بحيرة واستغراب ...

- استغفر الله ... لقد رأيت في منامي وأنتي فقدت كلّ أسناني حتّى متّ من الجوع ، ثمّ ... فقاطعها الشّيخ علي :

- استغفري الله والعني الشيطان وإن شاء الله سيكون خيراً ... فردّت عليه :

- لا .. لا .. لا بدّ وأنّ أزور سيدي بوغالام اليوم وأحمل معي عليه " شمع " ومائة غرام جاوي وبخور لأقدّمها قرباناً له وأطلب العفو لأنّي لم أزره الجمعة الماضية ...!

- استغفري الله يا امرأة وصلي على النّبي ودعيك من الحرافات الزّائفة فكلّ مخلوقات هذا الكون ومن بينهم سيّدك بوغالام تسير بأذن الله وأوامره عزّ وجلّ ...

- بالله عليك دعني من جهلك يا رجل ...! فلابد أن أزور "جدي" هذا اليوم أعرف وأن هُناك الوحيد أن لا تعطيني ثمن السَّمع والبخور دع نقودك عندك فسوف أبيع "عقوتي" الحمراء وأقتني بشمها ما أريد ... قالت ذلك وهي مزمجرة ثائرة ...
أيقن الشيخ علي أنه لا فائدة في محاربتها هذا الصَّباح فقال لها بشيء من السُّخريَّة :

- هيا .. هيا .. لا بأس انهضي الآن ، احضري الفطور وبعدها اذهبي لزيارة سيّدك بوغالم لعله يفسّر لك حلمك ..! هيا اسرعي ولا تنسي أن توقضي عمر ليلتحق بي الى المرعى ؛ قال ذلك ملتفتا الى ركن البيت حيث ينام عمر ولكنه اندهش لعدم وجوده فعاد ليسأل زوجته :

- أين ابنك يا امرأة ..؟

- عمر .. عمر .. يا الاهي أين أنت يا بني ..؟ قالت ذلك مندهشة هي الاخرى بعد أن ألقت بنظرة إلى ركن الكوخ .

- على كلّ حال لا تنزعجي فيظهر أنّه قضى ليلة الباحة مع حسن ابن الحاج الطيّب فعندما يأتي ابعثي معه الفطور والشاي وحشيه أن يسرع في الطريق حتّى أمكّن من اللحاق بوقت صلاة الجمعة بالمدينة ..

وبقيت الأم هائمة لا تعي ما تفعل ولسان حالها يردد ويقول ألم أقل لك أنّه حلم مزعج يا علي ! سامحك الله ..! يا سيدي بوغالم يا جدي وجدّ أجدادي دلّني الى طريق ابني عمر ولك منّي "وعدة" بعلبة شمع .. ومن الحجم الكبير ...!!! قالت ذلك بعد أن اكتشفت اختفاء حقيبة ادبهاش ابنها عمر ...

استلقى الشيخ علي كعادته على جنبه الأيسر يداعب حجيرات صغيرة بكفّ يده ويراقب أغنامه منتظرا قدوم ابنه عمر فجأة شهق وقفز من مكانه صائحا :

- يا الهي أين الكباش الأسود وراح مهرولا باحسا عنه بين التلال والادوية حتّى سقط على الارض لاهثا لاسترجاع أنفاسه ويمرور حسن ابن الحاج الطيّب في نفس ذلك الوقت يشاحته قادما من المدينة لمحّة فنزل مسرعا واتّجه نحوه ليستفسره عن حاله :

- يا إلهي ، عم علي ما بك هل أنت مريض ..؟

- أه .. أوف .. لا .. لا إند .. إثنى بخي .. بخير .. ولكنني أهد .. أبحث عن

الكبش الاسود فقد تخلف عن القطيع وأخشى أن يكون قد أكله الذئب ...
فاندش حسن لكلامه وقال مستغربا ومتعجبا :

- عن أي كبش تحكي يا عم علي أنست أنك أرسلته البارحة مع عمر وطلبت مني أن أوصله الى المدينة على متن الشاحنة كي تقدمه هدية الى العمدة ...!
فشهق الشيخ علي وصاح .. أنا .. فعلت ذلك .. أنا أدفع رشوة ...؟! آه عملها الكلب ...!

كان عمر ينوي الاستيلاء على العقد الذهبي لأنه بدل الكبش الذي وجد صعوبة كبيرة في نقله وبيعه الى أحد الجزائين بالمدينة غير أنه تراجع لما تذكر وأن العقد هدية عزيزة على أمه من الشيخ علي ، والكبش أيضا عزيز على أبيه ... ولكن ما العمل وهو مضطر للسفر وبحاجة الى المال ... وبارح الدوكر .

قصد عمر العاصمة ليلا حيث وطأت قدماه أديمها لأول مرة في حياته صباح اليوم الموالي بمحطة الحافلات بشارع قرطاج فيقي متسرا في مكانه مندهشا فاتحا فاه محدقا في العمارات الشاهقة والسيارات الكثيرة وتلك الحركية والازدحام والضجيج وبدا كالمعتوه يجرّب شوارع العاصمة بلا هواة ويقرأ اللوحات الدالة في بداية كل شارع هذا شارع قرطاج وبه كل دكاكين بيع قطع غيار السيارات والشاحنات والجرارات ثم شارع الحبيب بورقيبة أكبر وأوسع وأنظف شوارع العاصمة وبه يلتقي كل العاشقون وأصحاب المواعيد ويظهر في آخره تمثال الرئيس الحبيب بورقيبة على ظهر جواده كرمز لذكرى أحد الاعباد الوطنية المجيدة ، فشارع باريس الذي يظم أكثر الملاحى والخمّارات ثم نهج روما أين يوجد مقرّ الولاية وحيث اصطفت طوابير الشباب لمقابلة السيّد الوالى بحثا عن الشغل ، فشارع محمد علي أين الواجهات البلورية العارضة لجميع أنواع الأقمشة والأحذية ، فساحة محمد علي مقرّ الاتحاد العام التونسي للشغل أين تجمهر عدد من العمال في صخب وصياح وهتاف مطالبين بأبسط حقوقهم الشرعية فتدخل قوات الامن لتفريقهم بأشدّ الوسائل القمعية في ذلك الوقت . ثم واصل سيره حتى نهج زرقون أين اختلط الحابل بالنابل في هذه السوق ذات السلع المستوردة ، فهذا الشيخ عبد الباسط عبد الصمد يرتل ما تيسر من قصار السور بإحدى دكاكين بيع الاشرطة

والى جانبه بالدكان المجاور شريط رقص غربي لمادونا ! وقبالتة عند بائع الغلال شريط اسماعيل الخطّاب و .. الخ .. وهناك انتقل الى جهة الحفصية .

في نفس تلك السنة ، أوت 1982 وعلى الصّعيد السّياسي وبالتّحديد في لبنان تمّت محاصرة حوالي عشرة آلاف مقاتل فلسطيني من طرف قوات الاحتلال لمدة ثلاثة أشهر الشّيء الذي أجبرهم على مغادرة لبنان لإقامة مقرّ منظمة التحرير الفلسطينية الجديد بحمّام الشّطّ بتونس .

مرّت سنتان ازدادت فيهما لوعة الام عائشة فراق ابنها الوحيد ، لولا بعض الرّسائل التي تصلها من حين الى آخر فتبعث فيها الأمل وتتحمّل عندئذ بالصّبر .. تأقلم عمر مع هذا المحيط الجديد وأصبح له أصدقاء كثيرون وكان آخر مرة راسل فيها والديه أعلمهما بأنّه سوف لن يعود الى ذلك الرّيف المقفر إلّا بعد أن تتحسن حالته الاجتماعيّة ويملك سيّارة " باشي " مثل حسن ابن الحاج الطيّب حتّى وإن كلفه ذلك إرشاء أحد البحّارة أصحاب القوارب بأن يساعد على اجتياز المياه الاقليميّة وإبصّاله سواحل إيطاليا حلمه منذ أمد طويل ...

طيلة فترة الفراق هذه بذل الشّيخ علي جهداً جهيدا لاقتناع الأم عائشة بضرورة الصّبر ما دام الولد قد أصرّ على تكوين مستقبله بنفسه وكان يسليها ويضحكها دائما حتّى لا تشعر باليأس وقد ترك ابنها الوحيد فراغا كبيرا في البيت .. وذات ليلة من أواخر خريف 1984 وهما يتسامران كانت الأمّ عائشة تغزل الصّوف وتراقب " برّاد " الشّاي أمامها وكان الشّيخ علي ممدّداً بالقرب منها يستمع الى آخر نشرات الاخبار وفجأة أغلق جهاز الرّاديو .. تملّمل .. تأفّف ..

- ما بك يا رجل على غير عادتك ؟ تخاطبه الأمّ عائشة

- لا أبدا يا عيشوشي ...!

- كيف لا ... ؟ إنّي أعرفك جيّدا ... صارحني ما بك يا علي ...؟

- والله في الحقيقة أنا خجلت منك يا عيشوشي ...

- يا للفضيحة ... تخجل من زوجتك حبيبتك ... دع الحجل جانبا وقل لي ما بك يا رجل ...؟

- بصراحة ليس بالحجل هو لا حياء في الدّيسن ، المهمّ نحن لازمنا في عزّ

الكهولة... وعمر فارقنا وسوف لن يعود لا الى الرّيف ولا حتّى الى أرض الوطن إلا بعد عشرة أعوام على الاقل بإيطاليا إنّي أعرفه عنيد وسوف لن يعود إلّا ومعه سيّارة باشي إن شاد الله ... ثمّ ... فقاطعت الأم عائشة باستغراب :
- ولكن ما دخل هذا بذاك !.. إنّي والله لم أفهم شيئا ممّا كنت تقوله ! فردّ عليها :
- حسنا .. حسنا ستفهمين ، بقينا وحيدين في البيت ، وابنتا وحيد في الغربة فما رأيك لو نتوكّل على الله وتنجبين لنا أخ أو أخت لعمر تؤنسنا نحن في غيابه وسيفرح بها هو عند رجوعه ... ؟

فطأطأت الأم عائشة رأسها خجلا ولم تقل شيئا ... فعاد ليقول لها مرّة أخرى :
- أمّا من ناحية تعب وشقاء الرّيف فسأريحك منه فأنا بدوري مللت رعي الاغنام وخاصّة منذ أن فارقنا عمر فقد كنت معتمدا عليه في إعانتي ولكّني الآن لم أعد قادرا على مجابهة كلّ هذه الأتعاب وحدي لذا قرّرت أن نبيع كلّ الاغنام وننزع الى العاصمة لنشتري منزلا هناك ونستقرّ الى الأبد .

في إيطاليا وجد عمر صعوبة كبيرة في بداية الأمر في التّخاطب مع الايطاليين ولكن بمرور الأيام ومساعدة أبناء البلد من الجالية العاملة هناك تأقلم معهم وصارت الأمور طبيعيّة خاصّة وأنهم يقضون أغلب أوقاتهم في الضيعات الفلاحية خارج مناطق العمران والمدن الكبرى حتّى لا يقعوا في قبضة الشرطة إذ أنّهم لا يملكون شهادات الاقامة .

في إحدى ليالي سبتمبر 1985 أفاق الجيران على صباح مفاجئ بدار الشّيخ على الجار الجديد الذي حطّ رحاله في المدّة الاخيرة بجوارهم قادما من الرّيف ليستقرّ في هذا الحيّ الهادئ بحمّام الشط من ضواحي العاصمة ... ففزعوا جميعا مسرعين لاستجلاء الخبر ليجدوا زوجته الأم عائشة وقد أتاها المخاض ، وسرعان ما حضرت سيّارة الاسعاف لنقلها الى المصحّة القريبة من هناك ...

السّاعة الرابعة صباحا كان الشّيخ علي يروح ويغدو أمام غرفة الولادة يشعل السّيجارة تلو الاخرى وفجأة فتح الباب ، الدكتور مصطفى الحراش رئيس قسم التّوليد ومساعدته الاولى الدكتورة فتيحة ، طبيبان جزائريّان ملحقان للعمل بتونس يغادران الغرفة ... فهرع اليهما الشّيخ علي سائلا مضطربا وقد ألقى بعقب

سيجارته على البلاط ...

- أرجوك ، دكتور أخبرني كيف حال زوجتي وهل أنجبت ...؟ وماذا أنجبت ...؟
وم...؟ فقطاعه الدكتور مبتسما :

- اطمأن الحمد لله إنها بخير وقد أنجبت بنتا ...

فاهتز الشيخ علي ضاحكا وقد احمر وجهه من شدة الفرح رافعا يده الى السماء
في خشوع :

- الحمد لك يا رب .. سأسميها مريم ..

وهم بالدخول الى الغرفة غير أن الدكتور جذبه برفق بعيدا عن باب الدخول قائلا :

- إن السيدة زوجتك لا تزال في حالة غيبوبة من تأثير البنج ، فتركها تستريح حتى
تتحسن حالتها وغدا سترها ...

- وهل يمكن أن أرى ابنتي يا دكتور ...؟

فأجابه الدكتور في تردد ..!

- والله في الحقيقة هي بخير غير أن فترة الحمل لم تكن كافية وقد نزل الجنين قبل
مواعده بأيام قليلة وسيبقى طفلة هذه الفترة القصيرة تحت المراقبة وهي الآن في
الصندوق البلوري للتنفس الاصطناعي وإن شاء الله بعد أسبوعين ستغادر المصحّة
في أحسن حال ، أما بالنسبة للأم يمكنها الرجوع غذا الى بيتها ، وبامكانكما زيارة
ابنتكما متى تشاءان ، مبروك مرة أخرى ...

مرّ أسبوع بعد الولادة ، وأواخر سبتمبر 1985 في المصحّة أثناء وقت الزيارة
كان الشيخ علي والأم عائشة يجلسان الى حافة سرير ابنتهما مريم يداعبانها
ويحتضنانها الواحد بعد الآخر ، فجأة تعالى صوت الممرضة وتصفيقها مدويا بين
أرجاء القاعات وهي تروح وتحجيء على طول مسافة الممر :

- من فضلكم ... انتهت الزيارة ... هيا من فضلكم ... حان موعد الكشف ...
الاطباء ... قادمون ... هيا من فضلكم اسرعوا ...

فانحنّت الام عائشة تقبل ابنتها ورفعتها لتضمها الى صدرها وقبل أن تغادر القاعة
ويحضور الممرضة صبيحة سكرتيرة الدكتور مصطفى نزت عقدها الذهبي ووضعت

في رقة ابتتها مريم سائلة المرضة :

هل لا أخاف عليه من السرقة يا أختاه ... ؟ فردت المرضة صبيحة :

- اطمأني سيدتي فأنا الوحيدة المسؤولة عن هذا المكان والوحيدة التي أدخل هنا ،
لا تخافي ... فهي في رعايتي هي والعقد ...!

30 سبتمبر 1985 صباحا بسوق ضاحية حمام الشط الشيخ علي يطوف بين
الدكاكين ينتقي ما لذ من أحلى وأجود المربطات ... في البيت زوجته الام عائشة
تفرش الزريبة الحمراء المزركشة على طول مساحة الصالون وتقلأ المزهرة تضعها فوق
الطاولة المنتصبة هناك وتحضر الصحن والكؤوس .. الخ .. بعض الجارات
المتطفلات يعننها على الترتيب للاحتفال غدا غرة أكتوبر 1985 بخروج
مريم من المصحّة .

في المصحّة الدكتور مصطفى رئيس القسم وزوجته الدكتورة فتيحة يطوفان
بين القاعات في حصّة الكشف اليومية تصطحبهما المرضة صبيحة ، يقف الجميع
أمام سرير مريم وبعد اللقاء نظرة على ملفّها الصحي وعلى نتيجة التحليل التفت
الدكتور يخاطب المرضة :

- احفظي ملفّ مريم ابنة الشيخ علي واحضري بطاقة الخروج سأمضيها فيما بعد
وغدا بحول الله أثناء موعد الزيارة ستغادر المصحّة مصحوبة بوالديها وانحنى
يقبلها وزوجته ويداعبها ثم غادرا القاعة للاطلاع على حالة المرضى الآخرين ...
في دار الشيخ علي الجديدة التي ليست حلّة من الزينة، الام عائشة تخاطب زوجها :
- آه للأسف ليت عمر ابني كان حاضرا سيظهر من الفرح بأخته ... أرجوك دبر
أمرك يا سي علي أريده أن يشاركنا فرحتنا ...! فردّ الشيخ علي :

- بالله عليك يا امرأة كيف سأدبر أمرى وهو بدون عنوان ألا تفهمين إنّه مهاجر
بدون أوراق إقامة وهو مهدّد بين الفينة والاخرى بالقبض عليه وترحيله الى وطنه
... اصبري قليلا فسيأتي يوم ويعود بحول الله وستكون مريم مفاجأة له وسيفرح
بها كثيرا ثم نحن من المفروض أن نفرح لعدم وجوده هنا أنسيت أن ابنتا في سنّ

الرابعة والعشرين الآن ونحن تقريبا في الاربعين فلابدّ إذا من مراعاة شعوره كما لا بدّ أن نخجل لأنفسنا قليلا مالكا يا " عزوزة " .

1 أكتوبر 1985 ذاك اليوم الاسود في تاريخ الشعب التونسي كانت الحياة تسير بصورة طبيعية صباح ذلك اليوم بمنطقة حمام الشط إحدى ضواحي العاصمة ، الناس منتشرون هنا وهناك ، يروحون ويغدون ، كلّ منهمك في عمله ، الشيخ علي وزوجته يستعدان للذهاب بعد قليل الى المصحّة للعودة بمريم ... فجأة تظهر من البحر في فضاء المنطقة أسراب من الطائرات العسكرية الحربية النفّاثة فتمرّ عالية بسرعة البرق مدوية مجلّقة فوق سماء المدينة كعملية استطلاعية أولى وغابت برهة من الزّمن بعد أن اخترقت الأجواء التونسية تاركة الحيرة والخوف في نفوس المواطنين الذين خرجوا جميعا من بيوتهم إلى الشوارع رافعين رؤوسهم محدّقين في الفضاء لاستجلاء الخبر ، لتعود ثانية وبأكثر سرعة وأقلّ علوا فتقصف عشوائيا ويكلّ همجية مقرّ منطقة التحرير الفلسطينية وما جاورها من مساكن العزّل الأبرياء ، وارتجّت أرض تونس الخضراء بوقع القنابل لأوّل مرّة بعد ثلاثين سنة من الاستقلال هذا البلد الامين ، واستمع الى دويها في كلّ مكان وتطايرت الشّضايا فاندلعت الحرائق وتساعد الدخان ليغمّ سماء العاصمة كلّها ، وتعالى الصّباح وهرع الناس الى الشوارع مهرولين لا يلوون على شيء وعمّت البلبلة كلّ المنطقة وازداد صراخ النّسوة والأطفال ووصلت سيّارات الحماية المدنية وسيّارات الاسعاف وتدخلت فرق الجيش والانقاذ والشّرطة وحضرت الصّحافة ... لا أحد من سكّان المدينة كان يعلم ماذا يجري إلا بعدما تحركت وسائل الاعلام وتسابقت الاذاعات في كامل أرجاء المعمورة لتتناقل الحدث وللإعلان عن الغارة الجوية وتلاقت الأقمار الصناعية المشاهد على جناح السرعة ...

في نفس ذاك الوقت بايطاليا لا زال عمر وقد بلغته الكارثة حينيا كبقية أبناء تونس المهاجرين ففرع وهول مسرعا ليمتطي سيّارة مؤجّرة قاصدا السّفارة التونسية هناك للإطلاع على حقيقة ما جرى ...

برهة من الزّمن وكان هناك الى جانب الجالية التّونسيّة هاتفين ومحتجّين ومنذّدين بالغارة الوحشيّة الّآئمة الّتي أقدم عليها الصّهاينة ... تناول صحيفة تونسيّة توزّع بالفاكس هناك استغرب وهو يطالعها صحبة أبناء البلد عن سرّ عدم ظهور دفاعاتنا الجويّة ... ومازال يتابع قراءة الخبر عندما صعق فجأة وصاح صيحة دوى صداها داخل أرجاء مقرّ السّفارة وسقط مغشياً عليه في غيبوبة تامّة لما لمح اسمي والديه وقد تصدّرا قائمة ضحايا الغارة ...

في تونس وفي نفس اللّحظة كانت نفس الصّحيفة بيد الدكتور مصطفى الحراش والقائمة هي نفسها أمام عينيه وهو على مكتبه بالمصحّة الّتي التحقّ بها مبكّرا لانتفاذ حالات المجرى الاستعجاليّة للغارة فصاح هو الآخر مناديا زوجته :

- تعالي يا فتيحة .. الله أكبر ... إنّنا لله وإنّا اليه راجعون ...

فأسرعت الدكتورة زوجته لتلقي بنظرة صوب الصّحيفة ...

- ماذا هناك ..؟ ما بك ...؟ لماذا ناديتني ...؟

- الشّيخ علي وعائشة حرمه ...!! أتذكرين هذين الاسمين ...؟

فشهقت الدكتورة فتحيّة ضاربة صدرها بكفّ يديها :

- يا إلهي .. إنهما والدتا مريم الأثورة المقيمة بالغرفة 12 الّتي من المفروض أن تغادر المصحّة هذا اليوم ... يا للمسكينة !

فرقّ قلبها لحاله وهي الّتي لم تنجب أطفالا منذ زواجها من الدكتور مصطفى وتلك مشيئة الله في كلّ امرأة عاقر ... وأسرعت باكية الى سرير الرّضبعة تضمّها الى صدرها وتقبّلها في تأثّر وألم ...

في تلك الفترة وفي الشّارع التّونسي تعدّدت الآراء بين مؤيّد ومعارض ونظّمت المسيرات والمظاهرات وتزايدت أعمال العنف والحرق والتّدمير لمكاسب الدّولة وعمّت الفوضى القصر الحاكم وحاشيته وازداد التّكالب على الحكم ونهب أموال الشّعب وأملك الدّولة وتعدّدت الاحزاب المعارضة المرخّصة وغير المرخّصة حتّى أصبحت البلاد قاب قوسين أو أدنى من الهلاك تنتظر لحظة الانفجار والضّباب ممّا أجبر بعض الدّول الّتي أحسّت بخطورة الوضع فأرسلت لسحب

جالياتها العاملة والمقيمة هنا ..

الدكتور مصطفى الحرك ش والدكتورة فتيحة زوجته يجسمعان حقائبهما ويستعدان هما كذلك للرحيل إلى الجزائر مسقط رأسيهما ... دنت الدكتورة من زوجها تخاطبه بلين :

- مصطفى بكل صراحة لقد داهمنا قطار العمر وكل التحاليل والكشوفات التي أجريناها لم تجد نفعا كل هذه السنين وإني متأكدة وأن الحياة بدون أولاد مملّة وأعرف وأنتك قد صبرت كثيرا ولكنك لا تريد أن تخرجني لأنك إنسان شهم ومثقف وإيمانك بالله قوي ...

فقاطعها الدكتور مصطفى في استغراب :

- مالك يا عزيزتي ..؟ وما دخل موضوع عقمنا الآن في هذه الفترة ..؟ إني والله لم أفهم شيئا ...؟ فقاطعته الدكتورة فتيحة :

- ستفهم كل شيء عندما يصبح إسم البتيمة الصغيرة مريم مصطفى الحركش عوضا عن إسمها الأوّل مريم ابنة الشيخ علي ...!

بعد أيام من إتمام الاجراءات القانونية لتسجيلها بالحالة المدنية كانت العائلة بمطار قرطاج ضمن الوفود المباحرة لتونس. عون القمارق يسحب جوازي الدكتورة فتيحة وابنتها مريم ويأمرهما بالدخول الى غرفة التفتيش ...! فردّت الدكتورة في تعجّب ...؟

- نعم تفضّل ليس هناك أيّ مانع ..! فهذا واجبك ...

وبعد تفتيش دقيق ناولها الجوازين :

- عفوا دكتورة تفضّلني يمكنك المرور ... لقد راودتنا بعض الشكوك ونحن نشاهد عقدا ذهبيا ثميننا كهذا يزّن رقبة رضيعة صغيرة السن قضننا الأمر متعلّق بقضية تهريب ذهب ... فالفغو مرّة أخرى وسفرة ميمونة ...

فضحكت الدكتورة فتيحة وضحك زوجها وابتمت مريم والجميع يغادرون أرض تونس بعد أن نزعّت الدكتورة العقد من رقبة ابنتها مخاطبة زوجها :

- هذا العقد سأحتفظ به لديّ لأقدمه هدية لابنتي مريم في حفل زفافها إن شاء الله

في إيطاليا كان عمر يتابع أخبار بلده بشغف كبير عبر الصحف ولكن لا شيء يبشره بالعودة إلى الأرض الغالية فزيادة على حزنه وألمه لفقدان والديه زادت حالة البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية حزنا على حزن ... وتم الأيام والأعوام حتى جاء 7 نوفمبر 1987 في فجر هذا اليوم المجيد من تاريخ تونس أفاقَت البلاد والعباد على نداء الصدق . كل الأذان ملتصقة الى أجهزة البث المسموعة وكل الأعين محدقة في أجهزة البث المرئية ... العالم كله لم يصدق ما حدث في تونس خلال 24 ساعة قد غيّر ما كان يحدث منذ 24 سنة ...

وانفجرت الجماهير من شدة الكبت والقهر وخرجت تجوب الشوارع هاتفة مناصرة للتغيير معبرة عن فرحتها بشئ الطرق ، وألقي البيان التاريخي لقائد النصر وهلت بركات التهتة من جلّ دول العالم وعادت لتونس الخضراء سمعتها ومجدها منذ ذلك اليوم ، وعاد التونسيون إلى إعمار بلدهم وشيئا فشيئا بدأت الحركة الاقتصادية والاجتماعية تعود إلى حالتها الطبيعية ومعها عاد الأمن والاستقرار ليسود البلاد ، وعادت الجاليات الأجنبية وحلّ الدكتور مصطفى الحركش وعائلته للعمل بنفس المصحة بعد أن انفجرت هي الآخر أرض بلده الجزائر بالأحزاب الدينية المتعددة ...

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

خمس سنوات قبل التغيير ، وعشر سنوات بعدها : خمسة عشر سنة قضّاها عمر بإيطاليا فمنذ السنوات الأخيرة أصبح يتابع أخبار بلده عبر التقاطة لبرامج القناة السابعة الفضائية للتلفزة التونسية التي تبث عبر الأقمار الصناعية هذه الأخبار التي أصبحت تسرّ القلب فعاوده الحنين للرّجوع إلى أرض تونس الحبيبة وقد تجاوز العقد الثالث من عمره ويخشى أن يباغته الموت وهو في ديار الغربة ...

ما إن خرج بسيّارته من مأوى الباخرة ووطأت قدماه أرض تونس الخضراء ، ميمنا حلق الوادي حتى اغرورقت عيناه بالدموع وجشى يقبل ترابها في جوّ مأثّر ممزوج بالفرح والبكاء ... سار عمر بسيّارته الباشي الجديدة المحمّلة بالأدبаш المستوردة بشوارع العاصمة بحثا عن إحدى الفنادق للإقامة بها كان تائها مبهورا

بالتغييرات التي أمست عليها البلاد ومنشغلا بالتفكير في سنوات العذاب الماضية حتى ألهاه ذلك عن الوقوف عند الضوء الأحمر وجاء ضغطه على الغرامل متأخراً فلم يشعر وهو يصدم فتاة تقطع الطريق أمامه فسقطت تتألم وأغمي عليها ، فتجمهر الناس حوله وأشبعوه سباً وشتماً ولكما واقتادوه إلى مركز الشرطة أين احتفظ به موقوفاً على ذمة التحقيق حتى تظهر تحاليل وكشوفات الحالة الصحية للفتاة التي نقلت الى القسم الاستعجالي بالمصحة أين توجد الدكتور فتيحة الحراش والتي كاد أن يغمي عليها لما ألقوا بالجريحة أمامها والتي لم تكن سوى ابنتها مريم ...

- الحمد لله الاصابة كانت خفيفة وهذه شهادة طبية تثبت ذلك وهذا مطلب إسقاط دعوى وتنازل عن التتبع لذا فأرجو إطلاق سراحه ...!
هذا ما قاله الدكتور مصطفى الحراش لرئيس مركز الشرطة ... فردّ عليه :
- حسناً أمضي هنا يا دكتور ..

- شكراً ...

- مع السلامة ...



في اليوم الموالي بالمصحة وفي الغرفة 12 التي تقبل بها الأنسة مريم اجتمعت كل العائلة تواسيها وتخفف عنها آلام الكسر الخفيف ... وفجأة يطرق الباب برفق وبعد الاستئذان يدخل عمر ويبيده باقة ورود ويتوجه مباشرة إلى الفتاة يقبل يدها ويواسيها ، وبقي الى جانب والديها بعض الوقت يعتذر لهما عن كل ما حصل ، ثم استأذن مرة أخرى وغادر القاعة بعد التحية ...

عاد عمر في ذلك اليوم مرهقاً إلى مقر إقامته بالنزل ولم يكن يشغل باله شيئاً في ذاك الوقت سوى صورة تلك الطالبة الجزائرية الحلوة مريم والتي لم يفارق خيالها عينيه، فهو يتذكر كل كلمة وكل نظرة وكل ابتسامة صدرت منها بالمصحة .. بعد يومين بارحت مريم المصحة سليمة وفي نفس تلك الليلة كانت هي الاخرى ممددة على فراشها منفردة بغرفتها تعانق الوسادة وتتقلب ذات اليمين وذات الشمال

ثم تستلقي على ظهرها تراجع وتعيد كل حركات الشاب التونسي المهاجر عمر وكل كلامه ... ظلت أياً ما على تلك الحال وخاصة لما تكررت زيارات عمر للعائلة معللاً ذلك بالاطمئنان على صحة الفتاة ... الشيء الذي لفت انتباه أمها وقد حاولت عديد المرات معرفة الحالة النفسية لابنتها التي أصبحت تقبل أغلب الاوقات الى العزلة ، غير أن مريم علّلت ذلك بأنها مرهقة من كثرة الامتحانات ولكن بمرور الأيام سرعان ما استسلمت لضغط الفؤاد ووجدت نفسها تعترف لأمها بأوّل إحساس بطعم الحب في حياتها ...!

الدكتورة فتيحة بحكم مستواها الاجتماعي لم تعارض ابنتها في الأوّل بل حاولت معالجة المسألة بكلّ لين لأنها عادت بذكرتها إلى الوراثة إلى سنّ المراهقة وكيف أحبّت الدكتور مصطفى وهما طالبان آنذاك بنفس الفصل بجامعة قسنطينة بالجزائر . كانت الدكتورة في كلّ مرة تنفرد بابنتها تحاول إقناعها بأن الفرق شاسع بينها وبين عمر سواء في السنّ فهو في الخامسة والثلاثين وهي في السادسة عشر وفي المستوى الثقافي وهذا ما من شأنه أن يعكس الحياة الزوجية ويكون مآلها الفشل وأن عليها أن تتخرج أولاً ثم يأتي بعد ذلك دور الحب ... ولكن مريم كانت عنيدة ومصرّة على رأيها ...

كلّ زملاء وزميلات مريم بالمعهد أحسّوا بوجود علاقة بينها وبين صاحب السيارة " الباشي " . ذات يوم عند الخروج من المعهد كانت السماء تمطر رذاذا وكان عمر ينتظرها أمام الباب حتّى لمحها تمرّ مهرولة فدنا منها بسيارته مستعملاً المنبّه الصوتي ، كانت كلّ أعين الطلبة تراقبهما ومن حين لآخر تتعالى قهقهات الطالبات وهنّ يوشوشن لبعضهنّ واقفات تحت سقف المحطة ينتظرن قدوم الحافلة ، فتح بلور الشاحنة :

- مريم ... هاي مريم تعالي اركبي سأوصلك في طريقي ...

- شكرا لا داعي لذلك عمر .. فلسنا في نفس الاتجاه .

- لا يهمك تعالي اركبي سأوصلك ثم أعود ...

وبعد تردّد صعدت مريم وقد أحسّت بالحجل ، كان عمر يحاول النّش في موضوع

الحبّ ولكن مريم سرعان ما تغيّر مجرى الحديث وتسأله عن إيطاليا .. و.. و...
فجأة انحاز الى اليمين وأوقف السيّارة ودار ملتفتا صوب مريم التي همت بالنزول
قائلة :

- أرجوك عمر أنزلني هنا شكرا لك ... ولكن عمر صاح :

- لا ... لا .. تفعلي ذلك مريم أرجوك لا تسيئي الظنّ بي فليست مراقبا أو شاكّا
طائشا حتّى تتصرّفني معي هكذا انتظري سأكلّمك فقط في موضوع خاص أنت
تعرفينه بدون شكّ ...؟! بصراحة لقد شعرت بميل نحوك وحبّ وحنان له أعرف له
مشيل منذ أن فقدته مع فقدان والديّ في تلك الغارة الشنيعة والتي بدون شكّ لا
تعرفين عنها شيئا بحكم أنّك ربّما في ذلك الوقت لا تزالين رضيعة في بلدك
الجزائر ... مريم لقد كثر الحديث بخصوصنا في المعهد وفي الحيّ وحفاظا على سمعة
والديك أولا وسمعتنا نحن من الأفضل أن أتقدّم وأطلب يدك من الدكتور مصطفى
والدكتورة فتيحة ونعلن خطوبتنا وعقد قراننا لنضع حداً لمثل هذه الأقاويل وبعدها
أتركك تواصلين دراستك على راحتك ، أرجوك مريم أن توافقي ... سأترك لك
مهلة للتفكير ... فطائش مريم رأسها ولم تنطق بكلمة ... ودار عمر صوب المقود
وواصل قيادة سيّارته وهما في صمت

<http://ArchiveBeta.Saknet.com>

بعد أسبوع كانت فيلأ الدكتور مصطفى الحركاش في أبهى حلّة من الزينة .
ورود ، طاولات منتصبة الواحدة تلو الأخرى في بهو الصّالون الفسيح ... مدعوون
ومدعوّات كلّ إشارات الصحة والاطباء وطلبة المعهد جاؤوا لحضور عقد قران
الشّاب عمر والطالبة الجزائرية مريم ... ضجيج ... حركيّة ... ضحكات عالية ...
موسيقى رومنيّة ... أطباق الحلويات تروح وتغدو بين الطاولات ... الخ
العروسة لا تزال عند الخلاقة حضر قائم أمام باب الصّالون برحّب بالضّيوف والبسمة
تعلو محبّاه وهو يتقبّل التّهنّائي ... حلّ " العدول " وأخذ مكانه وراء الطاولة
ووصلت العروسة في الثّوب الأبيض وسط الرّغاريد والغناء وأخذت هي الأخرى
مكانها إلى يسار العدول والعروس عمر إلى يمينه ، طلب " العدول " بطاقات
التّعريف القوميّة للعروسين وللشّهود وراح يخطّ بالأحرف الغليظة " قسيمة الزّواج "
، في الحين انسحبت الدكتورة فتيحة والدة العروسة بعد أن استأذنت قائلة :

- عفرا اسمحوا لي بعض الدقائق نسيت إحضار هدية عزيزة عليّ لابتني كنت اختفظ بها منذ أكثر من خمسة عشر سنة تقريبا لهاته المناسبة بالذات ...
العدل أتم الكتابة وقام من على كرسيه ماسكا عقد الزواج بيد مرتعشة لكبر سنه وقال مخاطبا في الحاضرين :

- بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين من واجبي أيها الأخوة والأخوات وقبل إمضاء العروسين أن أقرأ العقد : تزوجت على بركة الله تعالى وسنة رسوله المسماة مريم مصطفى الحراش ورضيت كزوج لها بالمسمى عمر ابن الشيخ علي ...! فجأة ولما سمع الشيخ علي قفز الدكتور مصطفى من مكانه بكل سرعة وصرخ عاليا منقطعا على عقد الزواج يقطعه بكلتا يديه ويقضمه بأسنانه قطعة .. قطعة .. وهو يصيح في حالة هستيريا ... لا ... لا ... استغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم .. لا ... است... وسقط مغشيا عليه وسط دھول كل الحاضرين وتعجبهم ، وفي نفس اللحظة تدخل زوجته الدكتورة فتيحة بالعقد الذهبي فصعق عمر هو الآخر وهو يشاهده يتدلى بين يديها وصاح باكيا بصوت عال ومتقطع :

- يا إلهي إنه يشبهه ...! يشبه .. عقد .. عقد .. آه ... لا .. لا إنه هو نف .. هو نفسه .. يا إلهي وسقط هو الآخر وغاب عن الوجود .

ولم يفق من غيبوبته إلا بعد ساعات ليجد نفسه بالمصحة وإلى فراش بجانبه يستلقي الدكتور مصطفى الحراش وهو الآخر لا يزال قد أفاق من صدمته ويحيط بهما فريق أطباء الاستعجالي والدكتورة فتيحة ومريم التي قد عرفت في الحين قصتها فراحت تعانق أخاها باكية في جو من الحزن والتأثر ثم يدخل عليهم " العدل " ببجته ومحفظته في المصححة صانحا في الجميع مازحا :

- وأنا من سيدفع أجرتي ...؟!

فانفجر الجميع بالضحك وقاموا ليصلوا ركعتين حمد الله على ظهور الحقيقة قبل فوات الأوان ... ؟ ./.